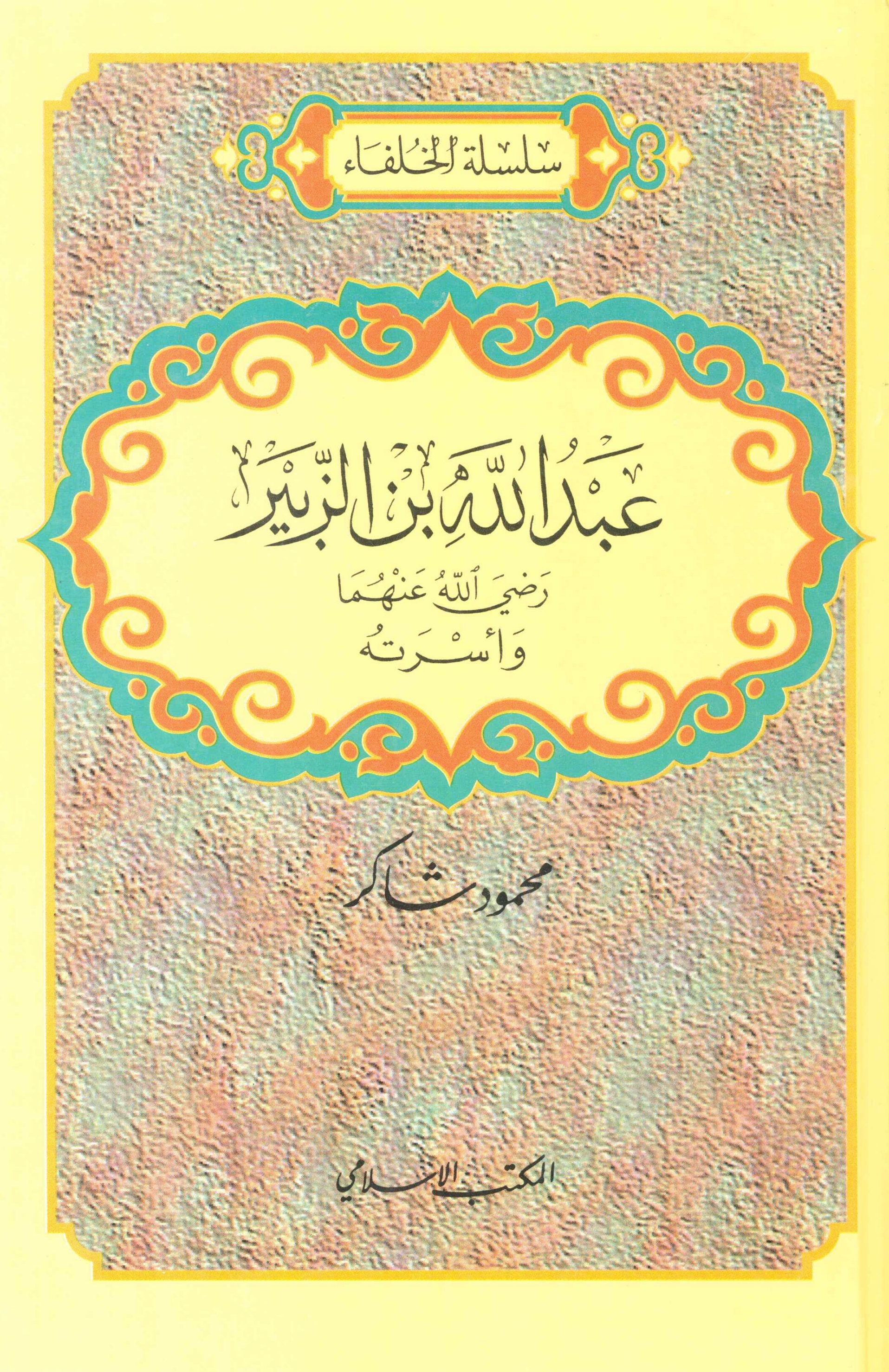
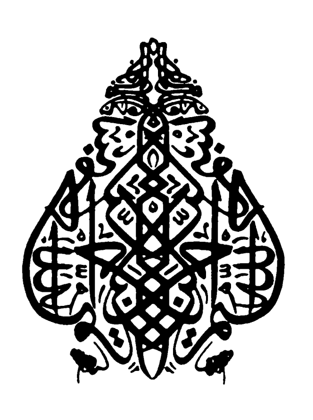

سلسلة الخلفاء
عبد الله بن الزبير
رضي الله عنهما
وأسرته
محمود شاكر
المكتب الإسلامي


عبد الله بن الزبير
رضي الله عنهما
وأسرته

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



سلسلة الخلفاء



محمود شاكر

المكتب الإسلامي

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، خاتم النبيين وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، كان الخليفة الشرعيّ مدّةً تقرب من تسع سنواتٍ، من يوم أن بويع في سبعٍ من رجب سنة أربعٍ وستين إلى أن قُتل، رضي الله عنه، في السابع عشر من جمادى الأولىٰ سنة ثلاثٍ وسبعين.

لقد بويع لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، في الحجاز، واليمن، ومصر، والعراق، وسائر المشرق، ومعظم جهات الشام، في دمشق، وحمص، وقنسرين وغيرها، بل إن مروان بن الحكم قد اتجه إلى الحجاز يريد البيعة، ولولا أن بعض أصحاب المصالح والخائفين على أنفسهم مما فعلوه، قد أغروا مروان، وحرّضوه لكان في عداد المبايعين.

بويع لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، وقام

بالأمر، ولم يُؤثّر على خلافته خروج مُتمرّدٍ، أو تمرّد إقليم، ولم يُنه خلافته إلا الموت أو التنازل. هذا مع العلمَ أنه أثناء مبايعته لم يكن مُدّعٍ للخلافة أو أحد قائم بالأمر، فالخليفة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان كان قد تُوفّي، وأوصى من بعده لابنه معاوية بن يزيد، غير أن معاوية بن يزيد لم يلبث أن تنازل بل إن هذا التنازل لم يكن سوى تأييدٍ ودعـم لابن الزبير إضافةً إلى أن الوصية له من أبيه لم تكن كافَيةً لإثبات شرعية خلافته. وكان تنازل معاوية بن يزيد، رحمه الله، حتى لا يكون خليفتان للمسلمين في وقتٍ واحدٍ، ويقع الخلاف، ويحدث الشتات والفرقة، ويكون القتال، والمسلمون في غنًى عن هذا فعام الجماعة ونهاية الخلاف لم يكن قد مضى عليه عهد طويل.

إذن بويع لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، ولم يكن هناك خليفة آخر، فهو الخليفة الشرعي، وإذا قام أحد بعد ذلك يدّعي الخلافة، ويريد تفريق الجماعة فإنه خارج ويُقتل، لحديث رسول الله ﷺ. عن عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من أتاكم، وأمركم جميع، على رجلٍ واحدٍ، يريد أن يشقّ عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه»، وفي روايةٍ: «إنه ستكون

هَنات وهَنات، فمن أراد أن يُفرّق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف، كائناً من كان»[1]. وعن أبي سعيدٍ الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين، فاقتلوا الآخر منهما»[2].

إذن كان عبد الله بن الزبير هو الخليفة الشرعي، وكان الذين قاتلوه خارجين عليه، مخالفين لشرع الله، شاقّين عصا الطاعة، مُفرّقين للأمة يجب قتالهم وقتلهم كائناً من كان، مهما كانت صفتهم، ومهما كانت مكانتهم، ولأيٍّ ما كان انتسابهم.

ولكن لما كان الخلفاء الذين حكموا قبله من بني أُميّة، والذين جاؤوا بعده من بني أميّة أيضاً، وعُرف العصر كله بعهد بني أُميّة لذا نُظر إليه كأنه شاذّ على ذلك العهد، بعيد عن خلفاء ذلك العصر، غريب عن حكامه، لذا عُدّ عند بعض الكُتّاب والمؤرّخين هو المخالف، وأُبعدت عنه الخلافة، وأُعطيت لخصومه لتتكامل مع شجرة النسب، وكأنها إرث، وذلك دون العودة إلى النظرة الشرعية لموضوع الخلافة. ووقع في هذا الأمر بعض الطيبين فدوّنوا عبارة «فتنة ابن الزبير» وردّدها

---

(١)(٢) أخرجه مسلم.

وراءهم الكثير جهلاً دون النظر والتحقيق في الجانب الشرعي. وبذا وقعوا في حبائل الأعداء الذين يُريدون الطعن، فهم من ناحيةٍ يُبعدون المسلمين عن معرفة الرعيل الأول معرفةً واضحةً إذ أن الأضواء لا تُسلّط إلا على الخلفاء، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ يتّهم السلف بأنهم أهل فتنةٍ، وسعيٍ وراء الدنيا، ومن ناحيةٍ ثالثةٍ يُركّزون على توارث الخلافة، وفي الوقت نفسه يُبالغون في مقتله لينالوا من خصومه الأمويين الذين يبغضهم أصحاب العصبية المجوسية بصفة أن خصوم ابن الزبير كانوا حكاماً لدولة الإسلام التي قضت على المجوسية، وأزالت دولتها، فإيقاع الخلاف بين المسلمين، هو نوع من الثأر إذ يضعُف المسلمون، ويمكن الانتصار عليهم، وربما يمكن إعادة المجوسية ودولتها. وفي بقاء الخلاف بين المسلمين سعادة للأعداء والحاقدين على مدى التاريخ.

نرجو من الله أن نستطيع تقديم معلوماتٍ كافيةٍ عن الخليفة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، ونسأل الله السداد والتوفيق فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الرياض: غرة شهر المحرم من عام ١٤١٨هـ.

محمود شاكر

البَابُ الأَوَّل

عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا

الفصل الأوّل

نشأة عبد الله بن الزبير

ولد عبد الله بن الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب، في السنة الأولى من الهجرة، وقيل: في شوّال من السنة الثانية، والأول أصحّ. وهو أوّل مولود للمهاجرين بالمدينة.

لما قدم المهاجرون إلى المدينة أقاموا بها مدّةً لا يُولد لهم. فقالوا: سحرتنا يهود، حتى كثرت القالة في ذلك، فكان أول مولودٍ عبد الله بن الزبير، فكبّر المسلمون تكبيرةً واحدةً حتى ارتجّت المدينة، وأمر النبيّ ﷺ، أبا بكرٍ فأذّن في أُذنيه.

روى أحمد عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن أسماء، أنها حملت بعبد الله بمكة، قالت: فخرجت به وأنا متمّ، فأتيت المدينة فنزلت بـ «قُباء» فولدته، ثم أتيت به رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرةٍ

فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ، قالت: ثم حنّكه، ثم دعا له، وتبرّك عليه، فكان أول مولودٍ في الإسلام.

وعن أسماء أنها خرجت بعبد الله من مكّة مهاجرةً، وهي حُبلى به، فولدته بـ «قُباء» أول مقدمهم المدينة، فأتت به رسول الله ﷺ، فحنّكه، وسمّاه عبد الله، ودعا له. وفرح المسلمون به لأنه كانت اليهود قد زعموا أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يُولد لهم في المدينة. فلما وُلد ابن الزبير كبر المسلمون. وأذّن الصديق في أذنه حين وُلد، وطاف به في المدينة، ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود.

وعن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ، كُلّم في غلمة ترعرعوا، منهم: عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن أبي سلمة، فقيل: يا رسول الله لو بايعتهم فتصيبهم بركتك، ويكون لهم ذكر، فأُتي بهم إليه فكأنهم تكعكعوا، واقتحم عبد الله بن الزبير، فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: «إنه ابن أبيه» وبايعه.

قالت أسماء: فجاء عبد الله بعد سبع سنين ليُبايع النبيّ ﷺ، أمره بذلك أبوه الزبير، فتبسّم النبيّ ﷺ، حين رآه مقبلاً، ثم بايعه.

كان ملازماً للولوج على رسول الله ﷺ، لكونه من آله، فكان يتردّد على بيت خالته عائشة، رضي الله عنها.

عن عروة، قال: لم يكن أحد أحبّ إلى عائشة بعد رسول الله من أبي بكرٍ، وبعده ابن الزبير.

أتى عبد الله إلى رسول الله ﷺ، وهو يحتجم، فلما فرغ، قال: «يا عبد الله، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد» فلما برز عن رسول الله ﷺ، عمد إلى الدم فشربه، فلما رجع، قال: «ما صنعت بالدم؟»، قال: عمدت إلى أخفى موضعٍ علمت، فجعلته فيه، قال: «لعلك شربته؟» قال: نعم. قال: «ولمَ شربت الدم؟ ويل للناس منك، وويل لك من الناس». فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم.

وفي روايةٍ: كان النبيّ ﷺ، قد احتجم في طستٍ، فأعطاه عبد الله بن الزبير ليريقه فشربه، فقال: «لا تمسّك النار إلا تحلة القسم، وويل لك من الناس، وويل للناس منك».

وفي رواية: أنه قال له: «يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهريقه حيث لا يراك أحد». فلما بعُد عمد إلى ذلك الدم فشربه، فلما رجع قال: «ما صنعت بالدم؟»،

قال: إني شربته لأزداد به علماً وإيماناً، وليكون شيء من جسد رسول الله ﷺ، في جسدي، وجسدي أولى به من الأرض، فقال: «أبشر لا تمسّك النار أبداً، وويل لك من الناس، وويل الناس منك»[1].

أدرك عبد الله بن الزبير من حياة رسول الله ﷺ، ثمانية أعوام وأربعة أشهرٍ. ويُعدّ في صغار الصحابة، وإن كان كبيّراً في العلم، والشرف، والجهاد، والعبادة، ولعبد الله صحبة ورواية أحاديث.

نشأ عبد الله بن الزبير في بيت كريم الآباء والأمهات والعمّات والخالات في محيط كله نور وهدى، وجهاد وفداء، قريباً من رسول الله ﷺ، وتحت رعاية جدّه لأمّه الصديق أبي بكرٍ، رضي الله عنه، وتحت كنف والده الزبير بن العوام، بطل أبطال المسلمين، وفارس فرسانهم، وبأحضان أمه أسماء بنت أبي بكرٍ الصديق، وخالته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهم جميعاً.

مرّ به عمر بن الخطاب، وهو صبي يلعب مع الصبيان، ففرّوا، ووقف، فقال له: مالك لا تفرّ مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين لم أُذنب فأخافك، ولم تكن الطريق ضيّقة فأوسع لك.

---

(١) البداية والنهاية.

كان الزبير بن العوّام، رضي الله عنه، يحبّ أن ينشأ ولده عبد الله شجاعاً، فارساً، يخوض غمار الحرب غير هيّابٍ ولا وجل، فهو أكبر أولاده، والزبير، رضي الله عنه، لا يُبارى في هذا الميدان، ولا يُجارى في الساحات، لذا فقد صحبه معه إلى الجهاد في بلاد الشام في خلافة الصديق، رضي الله عنه، فشهد معه اليرموك، وقد أركبه يومئذٍ فرساً، ووكّل به رجلاً.

الفصل الثاني

عبد الله بن الزبير في العهد الراشدي

تُوفّي رسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزبير في العاشرة من عمره تقريباً. ورغم صغر سنه فقد كانت له مكانة لقربه من جده الصديق، رضي الله عنه، ولمكانة والديه الزبير بن العوّام، حواري رسول الله، وابن عمّته، وأُمّه أسماء بنت أبي بكر، ولمكانته من خالته، أم المؤمنين، عائشة، ثم لمخايل الذكاء الواضحة عليه، ومظاهر القوة والشجاعة البادية من تصرّفاته وأعماله.

مع الصديق:

كان عبد الله بن الزبير أثيراً عند جدّه الصديق أبي بكر، فاستقطع من أبي بكرٍ في خلافته جبل (سَلْع) فقال له أبو بكر: ما تصنع به؟ فقال: لنا جبل بمكة، يقال له جبل (خويلد) فأحبّ أن يكون لنا بالمدينة مثله. فأقطعه أبو بكر ناحيةً من (سَلْع) فبنى بها بنائين.

وقد ذكرنا أنه خرج للجهاد إلى الشام مع أبيه،

وشهد معه اليرموك رغم صغر سنه، لذا فقد أعطاه فرساً، وأوكل به رجلاً.

مع الفاروق:

رجع عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، مع أبيه إلى المدينة بعد معركة اليرموك برأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وكان عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، أثيراً عند الفاروق كما كان عند الصديق، يستشيره في الملمّات، ويعتمد عليه في المهمّات رغم حداثة سنّه.

وبعد أن تسلّم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بيت المقدس عاد إلى المدينة، ورجع كل أميرٍ إلى مركزه، وما أن وصل أبو عبيدة بن الجراح إلى مركزه في حمص حتى حاصره الروم، واستنفروا معهم أهل الجزيرة الفراتية، فكتب أبو عبيدة إلى الخليفة يُعلمه الخبر. وكانت بقية بلدان الشام، كل مشغول بما فيه، ولو جاءته نجدة من أية مدينة فلربما اختلّ النظام في بلاد الشام كافةً وبخاصةٍ أن هناك جيوباً روميةً كثيرةً، ويختلط السكان بعضهم مع بعضٍ. لذا كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص في العراق يطلب منه أن يُسيّر مدداً

بإمرة القعقاع بن عمرو التميمي إلى حمص، وأن يبعث بعثاً بإمرة عياض بن غَنْم إلى بلاد الجزيرة الذين مالؤوا الروم. وفي الوقت نفسه خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه من المدينة ليدعم أبا عبيدة، وسار الزبير بن العوام ومعه ابنه عبد الله مع أمير المؤمنين، حيث كان الزبير، رضي الله عنه، يريد أن يُربّي ابنه على الجهاد، ويُعلّمه فنون القتال. علم أهل الجزيرة أن الجيش الإسلاميّ بقيادة عياض بن غَنْم قد طرق بلادهم، فتركوا حمص، ورجعوا إلى ديارهم. وأُخبر الروم أن أمير المؤمنين قد سار إلى الشام ليدعم حمص، فانهارت معنوياتهم، وضعف أمرهم فنصر الله عباده المؤمنين على أعدائهم، ولم يصل بعد القعقاع حيث وصل إلى حمص بعد انتصار المؤمنين بثلاثة أيام، كما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لم يصل أيضاً إلى حمص بل وصل إلى الجابية، وجاءه خبر المعركة، وهو فيها، وعُدّ المدد بين المقاتلين، ونال نصيبه من الغنائم. وسمع عبد الله بن الزبير خطبة عمر بن الخطاب في الجابية وحفظها، ووعاها، ورواها.

ورجع عبد الله بن الزبير مع أبيه إلى المدينة. وطلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عمرو بن

العاص المسير إلى مصر على رأس قوةٍ، وفتح تلك البلاد، ودعوة أهلها إلى الإسلام. وكان الزبير يريد الجهاد، وطلب من أمير المؤمنين بعثه إلى جهات انطاكية لحرب الروم، فقال له الفاروق: يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر؟ أي الجهاد في جهات مصر أميراً، فقال: لا حاجة لي فيها، ولكن أخرج مجاهداً وللمسلمين معاوناً، فإن وجدت عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل، فرابطت به، وإن وجدته في جهادٍ كنت معه. فأرسله الفاروق نجدةً لعمرو بن العاص ومعه بُسْر بن أرطأة[1]،

---

(١) بسر بن أرطاة: الأمير أبو عبد الرحمن القرشي العامري، له عن النبي ﷺ، حديث: «لا تُقطع الأيدي في الغزو» أخرجه أبو داود (٤٤٠٨)، والنسائي (٨/ ٩١)، والترمذي (١٤٥٠)، والطبراني (١١٩٥)، وأحمد (٤/ ١٨١).
وحديث: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة» أخرجه أحمد (٤/ ١٨١). وروى عنه جُنادة بن أبي أمية، وأيوب بن ميسرة، وأبو راشد الحبراني.
شهد فتح مصر، وولي الحجاز واليمن لمعاوية، ففعل قبائح، ووُسْوِسَ في آخر عمره.
قتل قُثم وعبد الرحمن ابني عبيد الله بن العباس صغيرين باليمن.
كانت له نكاية في الروم، وتوفي حوالي سنة سبعين.

وخارجة بن حذافة[1]، وعمير بن وهب الجمحي[2]، ومع الزبير ابنه عبد الله، فالتقيا عند باب مصر، ولقيهم أبو مريم والأسقف أبو مريام، وقد بعثه المقوقس من الإسكندرية، فدعاهم عمرو بن العاص إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وأمهلهم ثلاثة أيام، فطلبوا منه أن يزيد المدة فزادها لهم يوماً واحداً، ثم نشب القتال، فهُزم أهل مصر، وقُتل منهم عدد كبير، ومنهم الأرطبون الذي

---

(١) خارجة بن حذافة بن غانم بن عامر: شهد فتح مصر، وكان قاضياً لعمرو بن العاص، فلما كان صبيحة يوم وافى الخارجي ليضرب عمرو بن العاص، فلم يخرج عمرو يومئذٍ للصلاة، وأمر خارجة أن يصلي بالناس، فتقدّم الخارجي فضرب خارجة، وهو يظن أنه عمرو بن العاص، فأُخذ فأُدخل على عمرو، وقالوا: والله ما ضربت عمراً وإنما ضربت خارجة، فقال: أردت عمراً، وأراد الله خارجة، فذهبت مثلاً.

(٢) عمير بن وهب بن خلف الجمحي: أبو أمية، صحابي، من الشجعان. أبطأ في قبول الإسلام، شهد معركة بدر مع المشركين، وحزر لهم عدد المسلمين، وأسر ابنه، فرجع إلى مكة، فخلا به صفوان بن أمية وتعهد له عياله، ومنّاه بمالٍ وفيرٍ على أن يخرج إلى المدينة ويقتل محمداً، فوافقه، وخرج فقبض عليه المسلمون، وذهبوا به إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بما تم بينه وبين صفوان، فأيقن بنبوة رسول الله ﷺ، وأسلم، ورجع إلى مكة مسلماً. شهد فتح مصر، وتوفي حوالي عام ٢٣هـ.

فرّ من بلاد الشام إلى مصر، وهو الذي أجبر أهل مصر على المقاومة، وحاصر المسلمون حصن عين شمس، وارتقى الزبير بن العوام السور، فلما أحسّ سكان الحصن بذلك انطلقوا باتجاه عمرو بن العاص على الباب الآخر، وطلبوا الصلح، فقبل منهم، وكتب وردان الصلح، وشهد عليه الزبير، وابنه عبد الله.

سار عمرو بن العاص بعد ذلك باتجاه الغرب لفتح طرابلس، وسار معه عبد الله بن الزبير، فلما فتح عمرو طرابلس ـ بإذن الله ـ بقي فيها يُدير شؤونها، ويُنظّم أمورها، وبعث عبد الله بن الزبير على رأس فرقةٍ من الفرسان لفتح مدينة صبراتة، فأسرع عبد الله حتى وصل إليها صباحاً، فوجد أبواب السور مفتوحةً، وأهلها مشغولون بإخراج حيواناتهم للمرعى، فاقتحمها عليهم، ودخلها عنوةً فاستسلم أهلها، ولم يهرب منهم إلا من ركب البحر هارباً إلى صقلية. وهدم المسلمون سور المدينة خوفاً من أن يتحصّن بها الروم مرةً ثانيةً، وغنموا كل ما فيها، وكان شيئاً كثيراً، وأرسلوا إلى الأمير عمرو بن العاص في طرابلس يُخبرونه بما فتح الله عليهم، فحضر إلى صبراتة. ومنع أمير المؤمنين الفاروق الوالي عمرو بن العاص أن يتقدّم نحو الغرب أكثر من ذلك.

عهد عمرو بن العاص إلى عبد الله بن الزبير قيادة الفرسان، وهو شاب لم يتجاوز العشرين من العمر، وذلك لما شاهد من شجاعته وإقدامه، وقوته وفروسيته. مع أن في الفرسان من الأبطال، وأصحاب الخبرة في الحروب.

مع عثمان بن عفان:

أذن الخليفة ذو النورين، رضي الله عنه، بفتح إفريقية (منطقة تونس اليوم) فسار أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح في جيشٍ نحو إفريقية، فاجتاز طرابلس، واستولى على سفنٍ للروم كانت راسيةً هناك على الشاطئ، ثم تابع سيره نحو إفريقية، والتقى بجيوشٍ للبيزنطيين عام سبعةٍ وعشرين في موقعٍ يقال له (سبيطلة)، وهناك جاء مدد للمسلمين من المدينة فيه: الحسن والحسين ابنا عليٍّ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فلما وصل المدد إلى المسلمين كثُر الصياح والتكبير، فسأل ملك إفريقية القائد البيزنطي (جرجير) عن الخبر، فقيل له: قد أتى المسلمين عسكر، ففتّ ذلك في عضده. رأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يومٍ من الصباح إلى الظهر، فلما أذّن

الظهر سمع منادي (جرجير) يقول: من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار، وأُزوّجه ابنتي. فخاف عبد الله بن سعد على نفسه. فحضر عبد الله بن الزبير عند عبد الله بن سعد، وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس (جرجير) نفلته مائة ألف، وزوّجته ابنته، واستعملته على بلاده، ففعل، فصار (جرجير) يخاف على نفسه أشدّ من خوف عبد الله بن سعد.

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في إمداداتٍ متصلةٍ، وبلادٍ هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم. وقد رأيت أن نترك غداً جماعةً صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم مُتأهّبين، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملّوا، فإذا رجعوا، ورجع المسلمون إلى خيامهم، ركب من كان في الخيام من المسلمين، ولم يشهدوا القتال، وهم مستريحون، ونقصدهم على غرّةٍ، فلعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر عبد الله بن سعدٍ جماعةً من أعيان الصحابة، واستشارهم، فوافقوه على ذلك.

وفي صباح الغدّ نفّذ عبد الله بن سعد خطّة ابن الزبير، فأقام شجعان من المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر

قتالاً شديداً، فلمّا أذّن الظهر، وهمّ الروم بالانصراف على العادة لم يتركهم عبد الله بن الزبير، وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه، ووقع تعباً، عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين، وقصد الروم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا عليهم حملة رجلٍ واحدٍ، وكبّروا، فلم يتمكّن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون.

ونظر عبد الله بن الزبير فرأى (جرجير) وقد خرج من عسكره، فأخذ جماعةً من المسلمين، وقصده، فقتله. فقد رأى ابن الزبير (جرجير) وراء عسكره على برذون أشهب، ومعه جاريتان تُظلاّنه بريش الطواويس، وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد، فاختار ثلاثين فارساً من المسلمين، وأخذهم معه، ثم حمل في الوجه الذي فيه (جرجير)، وقال للفرسان الذين معه: احموا ظهري، فخرق الصف إلى (جرجير)، وخرج صامداً له، وما يظنّ هو وأصحابه إلا أن ابن الزبير وأصحابه رسول إليه حتى دنا منه، فعرف الشرّ، فثنى برذونه مولياً، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه، ودافّه بالسيف، وحزّ رأسه، ونصبه في رمحه وكبّر، فحمل

المسلمون من الوجه الآخر، فانهزم العدو في كل وجهٍ، ومنح الله المسلمين أكتافهم، وانهزم الروم بعد مقتل جرجير، وقتل المسلمون منهم مقتلةً عظيمةً، وأخذت ابنة (جرجير) سبيةً، فنفّلها ابن الزبير، وكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينارٍ، وسهم الراجل ألف دينار.

ولما أراد ابن أبي سرح أن يُبشّر عثمان بالفتح قال لابن الزبير: أنت أولى بهذا، فأرسله إلى عثمان بشيراً، فأخبره بما فتح الله عليه. فأمره عثمان أن يخطب، فلما خطب، قال عثمان: كأنه أبو بكر.

وفي أواخر عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ظهرت نار الفتنة التي كان يُؤجّجها أعداء الإسلام من يهود، ونصارى، ومجوس، ومن وقع في شباكهم من جفاة الأعراب، وبعض المُغفّلين الذين لم يعرفوا خبث الأعداء ومكرهم، ولم يخطر ببالهم تلك الألاعيب وذلك التخطيط، وتسلّل إلى المدينة أولئك الذين كانوا أداة التنفيذ، وحاصروا دار الخليفة عثمان، رضي الله عنه، وأرسل الصحابة أبناءهم للدفاع عن الخليفة، وكان عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، بين أولئك الأبناء الذين عملوا على حماية أمير المؤمنين حتى جاء أمر الله، وقُتل الخليفة، ونُهبت داره، وأُخذ ما في

بيت المال، وكان عبد الله بن الزبير، آخر من ترك الخليفة، وآخر من غادر الدار.

عن عبد الله بن الزبير، قال: قلت لعثمان يوم الدار: قاتلهم فوالله لقد أحلّ الله لك قتالهم. فقال: لا والله لا أُقاتلهم أبداً. قال: فدخلوا عليه وهو صائم. وكان عثمان قد أمّر عبد الله بن الزبير على الدار. وقال عثمان: من كانت لي عليه طاعة فلْيُطع عبد الله بن الزبير.

وعن عبد الله بن الزبير قال: قلت لعثمان: يا أمير المؤمنين إن معك في الدار عصابة مستنصرة بنصر الله بأقلّ منهم قلت لعثمان: فأْذن لي فلأقاتل، فقال: أنشدك الله رجلًا، أو قال: أُذكّر بالله رجلًا أهراق فيّ دمه، أو قال: أهراق فيَّ دماً.

وعن ابن سيرين قال: كان مع عثمان يومئذٍ في الدار سبعمائة، لو يدعهم لضربوهم ـ إن شاء الله ـ حتى يُخرجوهم من أقطارها، منهم: ابن عمر، والحسن بن عليّ، وعبد الله بن الزبير.

وقد جرح ابن الزبير يوم الدار بضعة عشر جرحاً غائرةً، وروي عنه أنه قال: فجرحت بضعة عشر جرحاً،

وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات، فأرجو أن تكون خير أعمالي.

وقد مدحه عبد الرحمن بن أرطأة يومذاك فقال:

فلو كنت مثل ابن الحواري لم ترم
وجالدت يوم الدار إذ عظم الخطب
ولـكـن عـبـد الله طـاعـن دونـه
وضارب يوم الدار إذ كره الضرب

مع رابع الراشدين:

بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بقي المسلمون دون خليفةٍ، وبقيت المدينة من غير راعٍ يرعى شؤونها، ويُنظّم أمورها، فاستغلّ المنحرفون هذا الوضع فأثاروا الفوضى، وولغوا فيها، وأوغلوا في الإساءة، فكان لا بدّ من مُبايعة خليفةٍ يُعيد الأمر إلى نصابه، ورغب المنحرفون أن تكون البيعة عن طريقهم كي يضمنوا عدم إقامة الحدود عليهم جزاءً عما ارتكبوه وقصاصاً لما فعلته أيديهم، وعرضوا الأمر على عليٍّ، وعلى طلحة، وعلى الزبير، رضي الله عنهم، فلم يرض أحد منهم أن ينال هذا الشرف عن هذه الطريق، أو يكون وصوله نتيجة ما وقع من فتنةٍ إضافةً إلى رغبتهم في البعد عن مظاهر الدنيا ومتاعها. ولكن لا بدّ للأمر من حلٍّ

لإنهاء الفوضى، ولا بدّ من تضحيةٍ لجمع الكلمة، ولا بدّ من مجازفةٍ لتطبيق المنهج الإسلامي، شريعة الله، ولا بدّ من أن يكون هذا كله من أحد أعيان الصحابة، وهم الذين بقوا من رجال الشورى أي: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، ومن كان من هذه الطبقة، غير أن الجميع قد أحجموا إذ هالهم ما حدث، وصعُب عليهم ما وقع من الأمر. ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ، واضطر عليّ، رضي الله عنه، على الموافقة لإنقاذ الوضع بعد أن رفض الآخرون كما رفض، فهو أكثر من تتجه نحوه الأنظار، لمكانته وعلمه، وشدّته في الحق، وتوقّع الطاعة له. قبل الأمر وهو أكثر ميلًا إلى الكره، ورضي والحذر يملأ نفسه، وبايعه الآخرون، وشعر الناس بالراحة، وظنّوا أن مرحلة الفوضى قد انتهت، ومرحلة الجد قد عادت، واستقبلت الرعية العهد بالطمأنينة النفسية بعد سيطرة مرحلة من الضيق.

لم يستطع أمير المؤمنين الجديد عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، أن يُنهي مرحلة الفوضى بالشكل الذي ظنّته العامة، إذ بقي المنحرفون على قوةٍ، وليس لديه قوة أمنٍ ضابطةٍ، وليس هناك من جيشٍ بيد الخليفة

فالناس في الثغور مرابطين، وقوات الأمصار التي جاءت لدعم الخليفة السابق قد عادت إلى أمصارها بعد مقتل الخليفة.

ولم تُبايع الأمصار جميعها، وارتابت الشام وأميرها معاوية بن أبي سفيان فتعلّل وتباطأ، فأثار فعله الخليفة، وزادت هذه الإثارة التعلّل والتأخير، وأبقت الأوضاع في قاعدة الخلافة على حالها، وتضايق بعض الصحابة من الوضع في مركز الخلافة، ومنهم طلحة والزبير، وأرادوا الخروج، غير أن أمير المؤمنين لا يسمح لهم بالخروج حيث يرغب في بقائهم بجانبه يستشيرهم، ويُعاونونه. استأذن طلحة والزبير الخليفة بالخروج إلى مكة لأداء العمرة فسمح لهم إذ لا يمكنه أن يحول بينهم وبين عبادةٍ، فخرجوا إلى مكة.

إن خروج طلحة والزبير، رضي الله عنهما، قد فسح المجال لأعداءٍ بالخروج، كما شجّع آخرين، وفي مكة دارَ الحديثُ عن مقتل الخليفة السابق، وعن الأوضاع في مركز الخلافة، وعن أمير المؤمنين الجديد، وعن بيعة الشام، وعن المارقين والمنحرفين الذين لهم قوتهم. وهكذا فإن المناخ الذي كان في المدينة قد انتقل إلى مكة، وما هرب منه طلحة والزبير، رضي الله عنهما، قد لحقهما إلى حيث

انتقلوا، فرأيا الهرب من منطقة الحجاز كلها، ووجدا في البصرة والكوفة منطقةً أكثر هدوءاً، وأكثر بُعداً عن الخلاف، فأزمعا السير، فانطلقا، وسارت معهما، أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهم، فهما زوجا أُختيها، ومشت معهما أسرتاهما، ومواليهما، وبعض الناس، حتى وصل عدد الركب المنطلق من مكة إلى سبعمائة إنسانٍ، كما كان ينضمّ إلى الركب على طول الطريق آخرون.

وصل خبر سير الركب إلى أمير المؤمنين عليٍّ، رضي الله عنه، فخرج يريد منعهم من مُتابعة السير، فهو قد أَذِن لمن أَذِن بالعمرة، ولم يأذن بالخروج إلى العراق، وقد لاحظ بهذا الخروج خلافاً وبداية شقاقٍ، ولكن الركب قد فاته، وتابع المسير حتى وصل إلى البصرة، وحثّ الخليفة السير وراء الركب حتى نزل بـ «ذي قار» وجاءه أهل الكوفة إلى حيث نزل.

وجد الركب المكيّ في البصرة بعض من اشترك في قتل الخليفة السابق عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقتلوا معظمهم، وعلى رأسهم حُكيم بن جبلة العبدي، ولم ينجُ من هذا القتل سوى حرقوص بن زهير العبدي، وقد أثار هذا القتل بني عبد القيس، ونقموا على الخليفة بحجّة أنه لم يُدافع عنهم.

مشت الوفود بين ركب الخليفة والركب المكيّ، وكاد الأمر ينتهي وتُحلّ المشكلات الناشئة عن عدم التفاهم إذ لم يكن حديث مباشر بين الطرفين، وارتحل الخليفة إلى البصرة، وعسكر بجانب معسكر الركب المكيّ، ولما اقترب الفريقان بعضهما من بعضٍ أثار أصحاب الفتنة البغضاء، فاشتعلت نار الحرب، ولما تصافّ الطرفان خرج عليّ بين الصفين، ونادى طلحة والزبير فكلّمهما، وقال للزبير: أتذكر أن رسول الله ﷺ، قال لك: «. . . . ولكنك ستُقاتله وأنت له ظالم»، قال: تذكرت ذلك، ولو كنت أذكر ما خرجت. وأراد ترك الأمر، وخرج على وجهه، وعندما وصل إلى وادي السباع غدر به ابن جرموزٍ وقتله.

استطاعت السبئية أن تُنشب القتال، وطلب عليّ، رضي الله عنه، من الناس أن يكفّوا عن القتال إلا أن الأمر قد خرج من يده، والتحم الفريقان في منتصف شهر جمادى الأولى سنة ستٍّ وثلاثين.

أسرع قاضي البصرة كعب بن سور الأزدي إلى البيت الذي فيه أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وقال لها: أبى القوم إلا القتال، لعلّ الله يُصلح بك، فدخلت الهودج، ووُضع الهودج على الجمل، وأخذ كعب بزمام

الجمل، وأخذ يدعو إلى كفّ القتال. وكانت معركة الجمل مأساةً في التاريخ. فكان خروج عائشة، رضي الله عنها، للصلح وإيقاف القتال، فكان غير ما أرادت.

عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: لمّا وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقُمتُ إلى جنبه، فقال: يا بُنيّ إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأُقتل اليوم مظلوماً، وإن من أكبر همّي لدَيْني، أفترى دَيْننا يُبقي من مالنا شيئاً؟ ثم قال: يا بُنيّ بعْ مالنا، واقضي دَيْني، وأوص بالثلث فإن فضل من مالنا من بعد قضاء الدين شيء فثلثه لولدك. قال هشام: وكان بعض ولد عبد الله بن الزبير، خبيب وعبّاد قد وازى بعض أبناء الزبير، قال: وله يومئذٍ تسع بناتٍ. قال عبد الله بن الزبير: فجعل يوصيني بدينه، ويقول: يا بُنيّ إن عجزت عن شيءٍ منه فاستعن عليه مولاي، قال: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبة من مولاك؟ قال: الله، قال: فوالله ما وقعت في كربةٍ من دَيْنه إلا قلت يا مولى الزبير اقض عنه دَيْنه، فيقضيه. قال: وقُتل الزبير ولم يدع ديناراً أو درهماً إلا أرضين فيها الغابة، وإحدى عشرة داراً بالمدينة، وداريـن بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر. قال: وإنما كان دَيْنه الذي كان

الخلافة، ومع ذلك كان يعترف بخلافة يزيد، ثم كان ينتقد تصرّفات بعض الولاة والقادة مثل عبيد الله بن زياد الذي كان السبب الرئيسي في فاجعة كربلاء، ومع ذلك لم يحاسبه الخليفة فكأنه راضٍ على ذلك. وكذلك القائد مسلم بن عقبة المرّي الذي استباح المدينة بعد وقعة الحرّة، غير أن هذا القائد قد هلك بعد ذلك بقليلٍ.

بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفةٍ، وإذا كان يزيد قد أوصى لابنه معاوية فإن هذا لا يكفي للبيعة، إذ لا بيعة دون شورى، إضافةً إلى أن الذين قد بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها وأعيان بني كلب. هذا مع أن معاوية بن يزيد أو معاوية الثاني لم يعش إلا شهراً أو يزيد قليلاً بعد وفاة أبيه حتى لحقه، وترك الأمر شورى لم يستخلف أحداً، ولم يوص إلى أحدٍ، وكان عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، قد بويع له في الحجاز، وفي العراق وما يتبعه إلى أقصى مشرق ديار الإسلام، وفي مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضاً إلا في بعض جهاتٍ منها، ففي دمشق بايع الضحاك بن قيس الفهريّ[1] لابن

---

(١) الضحاك بن قيس الفهري: الضحاك بن قيس بن خالد الفهرى =

الزبير، وفي حمص بايع النعمان بن بشير[1]، وفي

= القرشي: الأمير أبو أمية، وقيل: أبو أُنيس، وقيل: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو سعيد.
عداده في صغار الصحابة، له أحاديث. خرّج له النسائي. روى عن حبيب بن مسلمة، وحدّث عنه معاوية بن أبي سفيان، ووصفه بالعدالة. وحدّث عنه سعيد بن جبير، والشعبي و...
شهد فتح دمشق وسكنها، وكان على عسكر دمشق يوم صفين.
كان سيد بني فهر في زمانه. ولاّه معاوية الكوفة بعد وفاة زياد بن أبيه، ثم عزله عن الكوفة وولاّه دمشق، فبقي عليها حتى وفاة يزيد بن معاوية.
قتل الضحاك في مرج راهط في منتصف ذي الحجة سنة أربع وستين.

(١) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري، الخزرجي: الأمير، العالم، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، ابن أخت عبد الله بن رواحة.
مسنده مائة وأربعة عشر حديثاً، اتفق الشيخان على خمسة أحاديث، وانفرد البخاري بحديثٍ، ومسلم بأربعة أحاديث.
ولد النعمان سنة اثنتين للهجرة، وسمع من النبي ﷺ، وعُدّ من الصحابة الصبيان باتفاق. لأبيه دور يوم سقيفة بني ساعدة.
والنعمان هو الذي حمل قميص أمير المؤمنين عثمان بن عفان ملطخاً بالدماء بعد مقتله إلى معاوية بالشام.
كان من أمراء معاوية، فولاّه الكوفة مدةً، ثم ولي قضاء دمشق بعد فضالة بن عبيد، ثم ولي إمرة حمص.
كان النعمان بن بشير من الخطباء المعدودين، قتل في أواخر سنة أربع وستين.

قنسرين زفر بن الحارث الكلابيّ[1]، وفي فلسطين بايع ناتل بن قيس[2]، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي[3]، ولم يكن رافضاً بيعة ابن الزبير في الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبي[4].

---

(١) زفر بن الحارث بن عبد عمرو بن معاذ الكلابي، أبو الهذيل، أمير من التابعين، من أهل الجزيرة، كان كبير قيس في زمانه، شهد صفين مع معاوية أميراً على أهل قنّسرين، وشهد موقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس، وقُتل الضحاك ففرّ زفر إلى قرقيسيا (عند مصب نهر الخابور على الفرات) ولم يزل متحصناً بها حتى مات سنة خمس وسبعين في خلافة عبد الملك بن مروان.

(٢) ناتل بن قيس بن زيد بن حبان بن امرئ القيس الجذامي: والٍ، شجاع، من التابعين، كان سيد جذام بالشام، شهد صفين مع معاوية، بايع لابن الزبير، أرسل إليه عبد الملك بن مروان قوة بإمرة عمرو بن سعيد بن العاص فقتله سنة ست وستين.

(٣) روح بن زنباع بن روح بن سلامة، أبو زرعة الجذامي، سيّد قومه. كان قائد شرط عبد الملك بن مروان وكالوزير عنده.
كان لأبيه صحبة، ولروح دار بدمشق في البزورية (البزوريين).
ولي جند فلسطين ليزيد، وكان يوم مرج راهط مع مروان.

(٤) حسان بن مالك بن بحدل بن أنيف، أبو سليمان الكلبي: أمير بادية الشام، كان من القادة في جيش معاوية يوم صفين، ثم آزر مروان في حربه مع الضحاك بن قيس، وشدّ من أزر مروان بن الحكم، وبايعه. سلّموا بالخلافة على حسان أربعين ليلةً، ثم سلّم الأمر إلى مروان. =

وهكذا تمّت البيعة لعبد الله بن الزبير في ديار الإسلام كافةً، وأصبح الخليفة الشرعي، غير أن الكتّاب بعامّةٍ قد ذكروا الخلفاء من بني أمية فقط ما دام العهد أموياً، وتركوا الخليفة عبد الله بن الزبير ما دام من غير بني أمية، وعدّوا مروان بن الحكم هو الخليفة بعد مُعاوية الثاني، واستخلف مروان ابنه عبد الملك وتتابع خلفاء بني أمية من الأسرة المروانية حتى نهاية العهد الأموي، وإذا ذُكر عبد الله بن الزبير عُدّ ثائراً مُتمرِّداً خارجاً على الحكم، وقيل: فتنة ابن الزبير، وقد وقع في هذه المغالطة عدد من المسلمين ـ مع الأسف ـ. متناسين الحكم الشرعي أنه فيما إذا عُقدت البيعة لخليفة لا تزول عنه الإمامة العامة للمسلمين بحركة ثائرٍ في إقليمٍ أو سيطرة خارجٍ على مصرٍ. وقد عُقدت البيعة لعبد الله بن الزبير في سائر الأمصار الإسلامية شرقيها وغربيها باستثناء منطقة البلقاء الصغيرة من بلاد الشام. فالخليفة الشرعي

= له قصر بدمشق، وهو قصر البحادلة، ثم صار يُعرف بقصر ابن أبي الحديد.

وهو الذي يفخر ويقول:

فإن لا يكن منا الخليفة نفسه
فما نالها إلا ونحن شهود

هو عبد الله بن الزبير، وما مروان بن الحكم، ومن بعده ولده عبد الملك إلا خارجان على الخليفة، متمردان في الشام، عليهما بالقتل، وذلك حتى عام ثلاثةٍ وسبعين حيث قُتل عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعي، وبويع عبد الملك بن مروان، ودانت له البلاد فأصبح خليفةً بالغلبة.

فالخليفة الشرعي هو عبد الله بن الزبير منذ أن بلغه موت يزيد بن معاوية، وإعلان خلافته في النصف الأول من شهر رجب سنة أربعٍ وستين حتى مقتله يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين أي ما ينقص شهراً عن التسع سنواتٍ. وكل من ادّعى الخلافة في هذه المدة أو عمل لها يعدّ خارجاً على ولي أمر المسلمين ابن الزبير، وحكمه القتل.

الولايات في عهد عبد الله بن الزبير:

بايعت الولايات كلها لابن الزبير باستثناء منطقة البلقاء وبادية بني كلب، وأفرادٍ معدودين.

١ ـ مكة المكرمة:

بقي المسلمون دون إمام ما يقرب من أربعة أشهر بعد وفاة يزيد، وبويع لابن الزبير في رجب سنة أربعٍ وستين، وبعث إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب،

ومحمد بن الحنفية ليُبايعا له، فأبيا عليه. وكان محمد بن الحنفية يُقيم مع عبد الله بن عباسٍ فدعاهما ابن الزبير لبيعته، فقالا: لا، حتى تجتمع لك البلاد، فكان مرّةً يُكاشرهما، ومرّةً يلين لهما، ثم غلُظ عليهم، ووقع بينهم حتى خافاه، ومعهما النساء والذرية، فأساء جوارهم، وحصرهم، ثم أمرهم وبني هاشم أن يلزموا شِعبهم، وجعل عليهم الرقباء، ثم لم يلبث أن تركهم وشأنهم.

وكان قد التفّ حول عبد الله بن الزبير أثناء حصاره أيام يزيد جماعة من الخوارج يُدافعون عنه، منهم: نافع بن الأزرق(١)، وعبد الله بن أباض(٢)، وجماعة من رؤوسهم، فلما استقرّ أمره في الخلافة قالوا فيما بينهم:

---

(١) نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي، البكري، الوائلي، أبو راشد: رأس الخوارج الأزارقة، وإليه نسبتهم، كان أمير قومه ومرجعهم. من أهل البصرة.
صحب في أول أمره عبد الله بن عباس، وله أسئلة، روى الطبراني بعضها، من الذين ألّبوا على أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ثم كان مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ثم خالفه في موضوع التحكيم. وسار مع بعض أصحابه لدعم ابن الزبير، ثم تركوه، قُتل نافع يوم دولاب على مقربةٍ من الأهواز سنة خمس وستين. وكان جباراً فتّاكاً.

(٢) عبد الله بن أباض المقاعسي المري التميمي: رأس الأباضية وإليه نسبتهم، ولا تزال لجماعته بقية في عُمان، وشرقي =

إنكم قد أخطأتم لأنكم قاتلتم مع هذا الرجل، ولم تعلموا رأيه في عثمان بن عفان، ـ وكانوا ينتقصون عثمان ـ فاجتمعوا إليه فسألوه عن عثمان، فأجابهم فيه بما يسوؤهم، وذكر لهم ما كان متصفاً به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان، والسيرة الحسنة، والرجوع إلى الحق إذا تبيّن له، فعند ذلك تفرّقوا عنه، وفارقوه، وقصدوا بلاد العراق وخراسان فتفرّقوا فيها.

كان المختار بن أبي عبيد قد شهد مع عبد الله بن الزبير حصار الحصين بن نمير له، وأبدى له أنه من أشدّ الناس ولاءً له، وأنه من شيعته، وابن الزبير مُعجب به، ولا يسمع عليه كلاماً أبداً. وفي الوقت نفسه كان المختار يختلف إلى محمد بن الحنفية، ولكن محمداً لم يكن فيه بحسن الرأي، ولا يقبل كثيراً مما يأتي به.

جاء المختار إلى عبد الله بن الزبير، وقال له: اعلم أن مكاني في العراق أنفع لك من مقامي هنا، فأذن له عبد الله بن الزبير، فخرج المختار إلى العراق، وابن

= إفريقية، وفي بلاد الجزائر في وادي الزاب، وفي جزيرة جربة في تونس، وبعض البلدان في ليبيا.
توفي عبد الله بن أباض سنة ستٍ وثمانين، وأصله من بلدة «أباض» من قرى العارض باليمامة.

الزبير لا يشكّ في مناصحته، وهو مُصِرّ على الغشّ لابن الزبير. فلما وصل إلى العراق أظهر المناصحة، ولكن كان يعيب ابن الزبير في السرّ، ثم لم يلبث أن أصبح من أشدّ الناس عليه.

أظهر المختار دعوته لمحمد بن الحنفية، ولكن الواقع يُؤكّد أنه كان يعمل لنفسه، ثم قُتل المختار في العراق سنة ثمانٍ وستين.

وفي موسم سنة ثمانٍ وستين شهد موقف عرفة أربع راياتٍ متباينةٍ، وكل واحدةٍ منها لا تأتمّ بالأخرى الواحدة لمحمد بن الحنفية في أصحابه، والثانية لنجدة بن عامر وأصحابه من الخوارج، والثالثة لبني أمية، والرابعة لعبد الله بن الزبير. وكان أول من دفع رايته محمد بن الحنفية، ثم نجدة، ثم بنو أمية، ثم دفع ابن الزبير فدفع الناس معه. وكان عبد الله بن عمر فيمن انتظر دفع ابن الزبير، ولكنه تأخّر دفعه، فقال ابن عمر: أشبه بتأخّره دفع الجاهلية، فدفع ابن عمر فدفع ابن الزبير.

وتوفّي عبد الله بن عباس بالطائف سنة ثمانٍ وستين، وصلّى عليه محمد بن الحنفية. وقتل المختار في العام نفسه، وبعد مقتله أرسل عبد الله بن الزبير أخاه عروة بن الزبير إلى محمد الحنفية سنة تسعٍ وستين ليقول

له: إن أمير المؤمنين يقول لك: إني غير تاركك أبداً حتى تُبايعني أو أُعيدك في الحبس، وقد قتل الله الكذّاب الذي كنت تدّعي نصرته، وأجمع عليّ أهل العراقين، فبايع وإلا فالحرب بيني وبينك إن امتنعت. فقال محمد بن الحنفية لعروة: ما أسرع أخاك إلى قطع الرحم والاستخفاف بالحق، وأغفله عن تعجيل عقوبة الله، ما يشكّ أخوك في الخلود، وإلا فقد كان أحمد للمختار ولهديه مني، والله ما بعثت المختار داعياً ولا ناصراً، وللمختار كان إليه أشدّ انقطاعاً منه إلينا، فإن كان كذّاباً فطال ما قرّبه على كذبه، وإن كان غير ذلك فهو أعلم به، وما عندي خلاف، ولو كان خلاف ما أقمت بجواره، ولخرجت إلى من يدعوني، فأبيت ذلك عليه، ولكن هاهنا والله لأخيك قريناً، يطلب مثل ما يطلب أخوك، كلاهما يُقاتل على الدنيا، عبد الملك بن مروان والله لكأنك بجيوشه قد أحاطت برقبة أخيك، ولقد كتب إليّ يعرض عليّ ما قبله، ويدعوني إليه. قال عروة: فما يمنعك من ذلك؟ قال: أستخير الله، وذلك أحبّ إلى صاحبك، قال: أذكر ذلك له. فقال بعض أصحاب محمد بن الحنفية: والله لو أطعتنا لضربنا عنقه. فقال ابن الحنفية: وعلام أضرب عنقه؟ جاءنا برسالةٍ من أخيه، وحاورنا وجرى بيننا وبينه كلام، فرددناه إلى أخيه،

والذي قلتم غدر، وليس في الغدر خير. لو فعلت الذي تقولون لكان القتال بمكة، وأنتم تعلمون أن رأيي لو اجتمع الناس عليّ كلهم إلا إنسان لما قاتلته.

فانصرف عروة فأخبر أخاه عبد الله بن الزبير بما قال له محمد بن الحنفية، قال: والله ما أرى أن تعرّض له، دعه فليخرج عنك، ويُغيّب وجهه، فعبد الملك أمامه لا يتركه يحلّ بالشام حتى يُبايعه، وابن الحنفية لا يُبايعه أبداً حتى يجتمع الناس عليه، فإن صار إليه كفاكه، إما حبسه، وإما قتله فتكون أنت قد برئت من ذلك، فسكت عنه ابن الزبير.

وجاء كتاب من عبد الملك بن مروان إلى محمد بن الحنفية بمكة، وقد جاء فيه: إنه قد بلغني أن ابن الزبير قد ضيّق عليك، وقطع رحمك، واستخفّ بحقك حتى تُبايعه فقد نظرت لنفسك ودينك، وأنت أعرف به حيث فعلت ما فعلت، وهذا الشأم فانزل منه حيث شئت فنحن مُكرموك، وواصلو رحمك، وعارفو حقك، فقال ابن الحنفية لأصحابه: هذا وجه نخرج إليه، فخرج وخرج معه بعض أصحابه.

قال أبو الطفيل: فسرنا حتى نزلناه «أَيْلَة» فجاورونا بأحسن جوار، وجاورناهم بأحسن ذلك، وأحبّوا أبا القاسم حباً شديداً، وعظّموه وأصحابه، وأمرنا بالمعروف

ونهينا عن المنكر، ولا يُظلم أحد من الناس قربنا ولا بحضرتنا، فبلغ ذلك عبد الملك فشقّ عليه، وذكره لقبيصة بن ذُؤيب[1]، وروح بن زِنباع، وكانا خاصّته، فقالا: ما نرى أن ندعه يُقيم في قربه منك، وسيرته سيرته حتى يُبايع لك، أو تصرفه إلى الحجاز. فكتب إليه عبد الملك: إنك قدمت بلادي، فنزلت في طرفٍ منها، وهذه الحرب بيني وبين الزبير ـ كما تعلم ـ وأنت لك ذكر ومكان، وقد رأيت أن لا تُقيم في سلطاني إلا أن تُبايع لي، فإن بايعت لي فخُذ السفن التي قدمت علينا من القُلزم، وهي مائة مركبٍ، فهي لك وما فيها، ولك ألفا

---

(١) قبيصة بن ذؤيب، أبو سعيد الخزاعي، المدني ثم الدمشقي:
ولد سنة ثمانٍ للهجرة، ودعا له النبي ﷺ.
كان على الختم والبريد لعبد الملك بن مروان، وقد أُصيبت عينه يوم الحرّة، وتوفي سنة ستٍّ وثمانين. وشهد أبوه فتح مكة مع رسول الله ﷺ، وهو صاحب بُدْن النبي ﷺ، وتوفي ذؤيب في أواخر أيام رسول الله ﷺ. وكان ينزل بـ«قديد».
روى قبيصة عن عمر، وأبي الدرداء، وبلال، وعبد الرحمن بن عوف، وتميم الداري، وعبادة بن الصامت. وحدّث عنه ابنه إسحاق، ومكحول، ورجاء بن حيوة، والزهري، وإسماعيل بن عبيد الله، وأبو قلابة.
قال أبو الزناد: كان عبد الملك رابع أربعة في الفقه والنسك، هو وسعيد بن المسيب، وقبيصة بن ذؤيب، وعروة بن الزبير.

ألف درهم، أُعَجّل لك منها خمسمائة ألفٍ، وألف ألفٍ وخمسمائة ألفٍ آتيتك مع ما أردت من فريضة لك ولولدك، ولقرابتك ومواليك، ومن معك، وإن أبيت فتحوّل عن بلدي إلى موضعٍ لا يكون لي فيه سلطان.

فكتب إليه محمد بن عليّ: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عليّ إلى عبد الملك بن مروان، سلام عليك، فإني أحمد لك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد عرفت رأيي في هذا الأمر قديماً، وإني لست أُسْفِهُهُ على أحدٍ، والله لو اجتمعت هذه الأمّة عليّ إلا أهل الزرقاء ما قاتلتهم أبداً ولا اعتزلتهم حتى يجتمعوا. نزلت مكة فِراراً لما كان بالمدينة، فجاورت ابن الزبير فأساء جواري، وأراد مني أن أُبايعه، فأبيت ذلك حتى يجتمع الناس عليك أو عليه، ثم أدخل فيما دخل فيه الناس، فأكون كرجلٍ منهم، ثم كتبتَ إليّ تدعوني إلى ما قبلك فأقبلت سائراً فنزلت في طرفٍ من أطرافك، والله ما عندي خلاف، ومعي أصحابي، فقلنا: بلاد رخيصة الأسعار، وندنو من جوارك، ونتعرّض صلتك. فكتبت بما كتبت به، ونحن منصرفون عنك ـ إن شاء الله ـ[1].

---

(١) طبقات ابن سعد.

قال أبو الطفيل: فانصرفنا راجعين، فأذن للموالي، ولمن كان معه من أهل الكوفة والبصرة فرجعوا من مدين، ومضينا إلى مكة حتى نزلنا معه الشِّعب بمنى، فما مكثنا إلا ليلتين أو ثلاثاً حتى أرسل ابن الزبير أن أشخص من هذا المنزل ولا تجاورنا فيه. قال ابن الحنفية: اصبر وما صبرك إلا بالله، وما هو بعظيم من لا يصبر على ما لا يجد من الصبر عليه بدّاً حتى يجعل الله له مخرجاً، والله ما أردت السيف، ولو كنت أريده ما تعبّث بي ابن الزبير، ولو كنت أنا وحدي ومعه الجموع التي معه، ولكن والله ما أردت هذا، وأرى ابن الزبير غير مقصرٍ عن سوء جواري فسأتحوّل عنه. ثم خرج إلى الطائف فلم يزل بها مُقيماً حتى قدم الحجاج لقتال ابن الزبير لهلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، فحاصر ابن الزبير حتى قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين.

بناء الكعبة:

منذ أن تولّى عبد الله بن الزبير أمر المسلمين، وبويع بالخلافة شعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، ورأى أن جدار الكعبة قد مال من رمي المنجنيق أثناء حصار الحصين بن نميرٍ، فهدم الجدار حتى وصل إلى أساس إبراهيم الخليل، عليه السلام. وكان الناس يطوفون

ويصلّون من وراء ذلك، وجعل الحجر الأسود في تابوت في سَرَقٍ من الحرير، وادّخر ما كان في الكعبة من حُليٍّ، وثيابٍ، وطيبٍ عند الخزّان، حتى أعاد ابن الزبير بناءها على ما كان رسول الله ﷺ، يُريد أن يبنيها عليه من الشكل، وذلك كما ثبت في الصحيحين وغيرهما في المسانيد والسنن من طرق عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: «لولا حدثان قومك بكفرٍ لنقضت الكعبة، ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليُدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا». فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ، فجزاه الله خيراً. ثم لما غلبه الحجاج بن يوسف سنة ثلاثٍ وسبعين، هدم الحائط الشمالي، وأخرج الحجر كما كان أولاً، وأدخل الحجارة التي هدمها في جوف الكعبة فرصّها فيه، فارتفع الباب، وسدّ الباب الغربي، وتلك آثاره إلى الآن، وذلك بأمر عبد الملك بن مروان في ذلك، ولم يكن بلغه الحديث. فلما بلغه الحديث قال: وددنا أنا تركناه وما تولى من ذلك.

وقد همّ المهدي بن المنصور أن يُعيدها على ما بناها ابن الزبير، واستشار الإمام مالك بن أنس في ذلك، فقال: إني أكره أن يتخذها الملوك لعبةً - يتلاعبون في بنائها حسب آرائهم - فهذا يرى رأي ابن الزبير، وهذا يرى رأي عبد الملك بن مروان، وهذا يرى رأياً آخر، والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

وقال الواقدي: لما أراد ابن الزبير هدم البيت شاور الناس في هدمها فأشار عليه جابر بن عبد الله[2]،

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غَنْم بن سَلِمَة الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن، المجتهد الحافظ. صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، استشهد أبوه يوم أُحد، وكان قد شهد مع أبيه بيعة العقبة الثانية، وهو آخر من شهد تلك الليلة موتاً. وشهد بيعة الرضوان، وغزا مع رسول الله ﷺ، ست عشرة غزوة.
روى علماً كثيراً عن رسول الله ﷺ، وعن أبي بكرٍ، وعمر، وعليّ، وأبي عبيدة، والزبير، ومعاذ بن جبل. وحدّث عنه: سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، وسالم بن أبي الجعد، والحسن البصري، والحسن بن محمد بن الحنفية، ومحمد الباقر، ومحمد بن المنكدر، وأبو الزبير، وسعيد بن مينا، وأبو سفيان بن طلحة بن نافع، ومجاهد، والشعبي، ورجاء بن حيوة، ومحارب، وعمرو بن دينار و. . . . =

وعبيد بن عمير[1] بذلك، وقال ابن عباس: أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم حتى يتهاون الناس بحرمتها، ولكن أرى أن تُصلح ما يتهدّم من بنيانها، ثم

= وكان مفتي المدينة في زمانه، وتوفي سنة ثمانٍ وسبعين، وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان، وهو والي المدينة يومذاك. وكان قد فقد بصره في آخر أيامه، وقد عاش أربعاً وتسعين سنة.

كان والده من النقباء البدريين.

عن جابر أنه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ، ست عشرة غزوة، لم أقدر أن أغزو حتى قتل أبي بأحد، كان يخلفني على أخواتي، وكنّ تسعاً، فكان أول ما غزوت معه «حمراء الأسد».

وروي عنه، قال: كنت في جيش خالدٍ في حصار دمشق.

بلغ مسنده ألف وخمسمائةٍ وأربعين حديثاً، اتفق له الشيخان على ثمانيةٍ وخمسين حديثاً، وانفرد البخاري بستةٍ وعشرين حديثاً، ومسلم بمائة وستةٍ وعشرين حديثاً.

(١) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي الجُندعي المكي، الواعظ المفسّر، ولد في حياة رسول الله ﷺ.

حدّث عن أبيه، وعمر بن الخطاب، وعليّ، وعائشة، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس. وحدّث عنه ابنه عبد الله، وابن أبي مليكة، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وأبو الزبير.

وروي عن عطاء أنه قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة، فقالت له: خفّف فإن الذكر ثقيل ـ تعني إذا وعظت ـ.

توفي سنة أربعٍ وسبعين قبل وفاة عبد الله بن عمر بأيامٍ يسيرةٍ.

إن ابن الزبير استخار الله ثلاثة أيّامٍ، ثم غدا في اليوم الرابع فبدأ بنقض الركن من الأساسِ، فلما وصلوا إلى الأساس وجدوا أصلاً بالحجر مُشبّكاً كأصابع اليدين، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً فأمرهم أن يحفروا، فلما ضربوا بالمعاول في تلك الأحجار المشبّكة ارتجّت مكة فتركه على حاله، ثم أسّس عليه البناء، وجعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض، باب يُدخل منه وباب يُخرج منه، ووضع الحجر الأسود بيده، وشدّه بفضة لأنه كان قد تصدّع، وزاد في وسع الكعبة عشرة أذرعٍ، ولطّخ جدرانها بالمسك، وسترها بالديباج، ثم اعتمر من مسجد عائشة، وطاف بالبيت، وصلّى، وسعى، وأزال ما كان حول الكعبة من الزبالة، وما كان حولها من الدماء. وكانت الكعبة قد وهت من أعلاها إلى أسفلها من حجارة المنجنيق، واسودّ الركن، وانصدع الحجر الأسود من النار التي كانت حول الكعبة. وكان سبب تجديد ابن الزبير لها ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة، رضي الله عنها، المتقدّم ذكره.

٢ ـ المدينة المنورة:

أرسل عبد الله بن الزبير إلى المدينة أخاه عبيدة بن الزبير والياً عليها من قبله، وطلب منه إجلاء بعض بني

أمية، فأجلاهم، فرحلوا عنها، ومنهم: مروان بن الحكم وابنه عبد الملك.

ثم أناب ابن الزبير على المدينة جابر بن الأسود بن عوف، وهو ابن أخي عبد الرحمن بن عوف. وفي الوقت الذي بعث فيه مروان بن الحكم إلى العراق عبيد الله بن زياد ليأخذها من نواب ابن الزبير، وأرسل إلى المدينة حُبيش بن دُلْجة[1] على رأس جيش لينتزعها من ابن الزبير، فسار نحوها، فلما انتهى إليها هرب نائبها جابر بن الأسود بن عوف، فجهز نائب البصرة من قبل ابن الزبير، وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي جيشاً من البصرة إلى ابن دلجة بالمدينة، فلما سمع بهم حُبيش بن دُلْجة سار إليهم خوفاً من أهل المدينة فيما إذا قابل خصمه فيها.

وبعث ابن الزبير نائباً جديداً إلى المدينة، وهو عباس بن سهل بن سعد الساعدي[2]، وأمره أن يسير في

---

(١) حبيش بن دلجة القيني: شامي من أهل الأردن، شهد صفين مع معاوية، دخل المدينة أيام مروان وأخذ له البيعة من أهلها، ثم فرّ منها عندما جاءته قوة لابن الزبير، فلاحقته، وقتل سنة خمسٍ وستين.

(٢) العباس بن سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري =

طلب حُبيش، فسار في طلبهم حتى لحقهم بالربذة، فرمى يزيد بن سنان حُبيشاً بسهم فقتله، كما قُتل بعض أصحابه، وهُزم الباقون، وتحصّن منهم خمسمائة في المدينة، ثم نزلوا على حكم عباس بن سهل فقتلهم صبراً، ورجعت فلولهم إلى الشام.

وأرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً ليفتح له الشام، فبعث إليه مروان جيشاً بإمرة عمرو بن سعيد بن العاص فتلقّاه في جنوبي الشام، فلما علم مصعب ضخامة جيش عمرو بن سعيد كرّ راجعاً، ولم يظفر بشيءٍ.

وبعث عبد الملك بن مروان ابن عمه عبد الملك بن الحارث بن الحكم في جيشٍ إلى وادي القرى ليأخذوا المدينة من نواب ابن الزبير، وكتب

= الخزرجي الساعدي المدني الفقيه أحد ثقات التابعين.
ولد سنة خمس وعشرين في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه.
روى عن أبيه، وعن سعيد بن زيد، وأبي هريرة، وأبي حميد الساعدي.
ضربه الحجاج وآذاه، واعتدى عليه لأنه من أصحاب ابن الزبير، فجاء أبوه سهل بن سعد يشفع فيه، وقال: ألا تحفظ فينا وصية رسول الله ﷺ: «اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»، فأطلقه، وكاشر عنه.
وتوفي العباس بن سهل بالمدينة سنة مائةٍ وستٍ وعشرين.

المختار إلى ابن الزبير إن أحببت أن أمدك بمددٍ، وإنما يريد مخادعته ومكايدته، فكتب إليه ابن الزبير: إن كنت على طاعتي فلست أكره ذلك، فابعث بجندٍ إلى وادي القرى ليكونوا مدداً لنا على قتال الشاميين، فجهّز المختار ثلاثة آلافٍ عليهم شرحبيل بن ورس الهمداني، ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة، وقال له: سر حتى تدخل المدينة، فإذا دخلت فاكتب إليّ حتى يأتيك أمري - وإنما يريد أخذ المدينة من ابن الزبير، ثم يركب بعد ذلك إلى مكة ليحاصر ابن الزبير بها -. وخشي ابن الزبير أن يكون بعث ذلك الجيش مكراً، فبعث العباس بن سهل بن سعد الساعدي في ألفين، وأمره أن يستعين بالأعراب، وقال لهم: إن رأيتموهم في طاعتي فذاك، وإلا فكايدوهم حتى يهلكهم الله. فأقبل العباس بن سهل حتى لقي شرحبيل بن ورس بالرقيم، وقد بقي ابن ورس في جيشه، فاجتمعا على ماءٍ هناك، فقال له العباس: ألستم في طاعة ابن الزبير؟ فقال: بلى، قال: فأمرني أن نذهب إلى وادي القرى فنقاتلْ من به من الشاميين. فقال له ابن ورس: فإني لم أؤمر بطاعتك، وإنما أمرني أن أدخل المدينة، ثم أكتب إلى صاحبي فإنه يأمرني بأمره، ففهم عباس مغزاه، ولم يُظهر له أنه فطن لذلك، فقال له: رأيك أفضل فاعمل ما بدا لك.

ثم نهض العباس بن سهل من عنده، وبعث إليهم الجُزُر، والغنم والدقيق، وقد كان عندهم حاجة شديدة إلى ذلك، وجوع كثير، فجعلوا يذبحون، ويطبخون، ويختبزون، ويأكلون على ذلك الماء. فلما كان الليل بيّتهم عبّاس بن سهل فقتل أميرهم، وطائفةً منهم نحواً من سبعين، وأسر منهم خلقاً كثيراً، ورجع القليل منهم إلى المختار، وإلى بلادهم خائبين.

ولما بلغ خبرهم المختار قام في أصحابه خطيباً فقال: إن الفجّار الأشرار قتلوا الأبرار الأخيار، ألا إنه كان أمراً مأتياً وقضاءً مقضياً. ثم كتب إلى محمد بن الحنفية مع صالح بن مسعود الخثعمي كتاباً يذكر فيه: أنه بعث إلى المدينة جيشاً لنصرته فغدر به جيش ابن الزبير، فإن رأيت أن أبعث جيشاً آخر إلى المدينة، وتبعث رسلاً من قبلك إليهم فافعل. فكتب إليه ابن الحنفية: أما بعد فإن أحبّ الأمور كلها إليّ ما أُطيع الله فيه، فأطع الله فيما أسررت وأعلنت، واعلم أني لو أردت القتال لوجدت الناس إليّ سراعاً، والأعوان لي كثيرة، ولكني أعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين. وقال لصالح بن مسعود: قل للمختار فليتق الله، وليكفّ عن الدماء.

وفي سنة إحدى وسبعين عزل عبد الله بن الزبير عن المدينة جابر بن الأسود بن عوف، وولّى عليها طلحة بن عبد الله بن عوف[1]، وكان هو آخر أمرائه عليها، حتى قدم عليها طارق بن عمرو - مولى عثمان - من جهة عبد الملك.

وأما اليمامة فقد تغلّب عليها نجدة بن عامر الحارثي، ثم خرج عليه أتباعه وقتلوه سنة إحدى وسبعين لخلافٍ بينهم، وتولّى أمر الخوارج أبو فُديك عبد الله بن ثور[2]، فبعث خالد بن عبد الله القسري[3] أمير البصرة

---

(١) طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري: قاضي المدينة زمن يزيد بن معاوية حدّث عن عمه عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وابن عباس. وحدّث عنه أبو الزناد، والزهري.
كان شريفاً جواداً حجّة إماماً، يقال له: طلحة الندى. مات سنة تسعٍ وتسعين.

(٢) أبو فديك عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة بن تغلب: أحد رؤوس الخوارج، كان في أول أمره من أتباع نافع بن الأزرق، ثم آلت إليه إمرة الخوارج أيام عبد الله بن الزبير، ثار في البحرين بعد مقتل مصعب بن الزبير، فأرسل إليه أمير البصرة من قبل عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله القسري الجيش إثر الجيش حتى قتل سنة ثلاثٍ وسبعين.

(٣) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري، من بجيلة، أبو =

أخاه أمية بن عبد الله في جيشٍ كثيفٍ لقتالهم فهزمه أبو فديك. فكتب خالد بن عبد الله القسريّ إلى عبد الملك، فأمر بندب الناس مع أهل الكوفة والبصرة لقتاله، فزحف عليه عشرة آلافٍ، فقاتلهم وصمد لهم إلى أن قتلوه، وقتلوا من أصحابه نحو ستة آلافٍ، وأسروا ثمانمائةٍ.

٣ ـ الشام:

كان مُعاوية بن يزيد قد عزم على أن يُبايع لابن الزبير بدمشق بعد أن ردّ بيعة من بايعه بناءً على ما أوصى أبوه، وترك الأمر شورى، ولكن لم يلبث أن توفّي، ووصل مروان بن الحكم إلى الشام مع من سار معه من المدينة من بني أمية، وقد عزم أيضاً على البيعة لابن الزبير. وكان أهل دمشق قد بايعوا للضحّاك بن قيسٍ على أن يُصلح بينهم، ويُقيم أمرهم حتى يجتمع الناس على إمامٍ، والضحاك يريد أن يُبايع لابن الزبير، وقد بايع لابن الزبير النعمان بن بشير بحمص، وبايع له زُفَر بن الحارث الكلابيّ بقنسرين، وبايع له ناتل بن قيس بفلسطين، وأخرج منها روح بن زنباع الجذاميّ.

= الهيثم، أمير العراقين، أحد خطباء العرب وأجوادهم، يماني الأصل، من أهل دمشق، هجاه الفرزدق. ومات سنة مائة وستٍّ وعشرين.

وصل إلى الشام عبيد الله بن زياد هارباً من البصرة، وقد خاف على نفسه من زوال ملك بني أمية فلم يزل هو والحصين بن نمير بمروان بن الحكم يُحسّنان له أن يتولّى، حتى ثنوه عن رأيه، وحذّروه من دخول سلطان ابن الزبير وملكه إلى الشام، وقالوا له: أنت شيخ قريش وسيّدها، فأنت أحقّ بهذا الأمر، فرجع عن البيعة لابن الزبير. وخاف ابن زياد الهلاك إن تولّى غير بني أمية، فعند ذلك التفّ هؤلاء كلهم مع قومه بني أمية ومع أهل اليمن على مروان، فوافقهم على ما أرادوا، وجعل يقول: ما فات شيء.

وكتب حسّان بن مالك بن بحدل الكلبي إلى الضحاك بن قيس يثنيه عن المبايعة لابن الزبير، ويُعرّفه أيادي بني أمية عنده وإحسانهم، ويذكر فضلهم وشرفهم، وقد بايع حسان بن مالك أهل الأردن لبني أمية، وهو يدعو إلى ابن أُخته خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وبعث إلى الضحاك كتاباً بذلك، وأمره أن يقرأ كتابه على أهل دمشق يوم الجمعة على المنبر، وبعث بالكتاب مع رجلٍ يقال له: ناغضة بن كريب الطابجي، وقيل هو من بني كلب، وقال له: إن لم يقرأه هو على الناس فاقرأه أنت. فأعطاه الكتاب

فسار إلى الضحاك فأمره بقراءة الكتاب فلم يقبل، فقام ناغضة فقرأه على الناس، فصدّقه جماعة من أمراء الناس، وكذّبه آخرون، وثارت فتنة عظيمة بين الناس، فقام خالد بن يزيد بن معاوية، وهو شاب حدث، على درجتين من المنبر، فسكّن الناس، ونزل الضحّاك فصلّى بالناس الجمعة، وأمر الضحّاك بن قيس بأولئك الذين صدقوا ناغضة أن يُسجنوا، فثارت قبائلهم فأخرجوهم من السجن، واضطرب أهل دمشق في ابن الزبير وبني أمية، وكان اجتماع الناس لذلك ووقوفهم بعد صلاة الجمعة بباب «الجيرون» فسُمّي هذا اليوم «يوم جيرون».

قال المدائني: وقد أراد الناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يتولّى عليهم فأبى، وهلك في تلك الليالي. ثم إن الضحاك بن قيس صعد منبر المسجد الجامع فخطبهم به، ونال من يزيد بن مُعاوية، فقام إليه شاب من بني كلب فضربه بعصىً كانت معه، والناس جلوس مُتقلّدي سيوفهم، فقام بعضهم إلى بعضٍ فاقتتلوا في المسجد قتالاً شديداً، فقيس ومن لفّ لفيفها يدعون إلى ابن الزبير، وينصرون الضحاك بن قيس، وبنو كلبٍ يدعون إلى بني أمية، وإلى البيعة لخالد بن يزيد بن

مُعاوية، ويتعصّبون ليزيد وأهل بيته، فنهض الضحاك فدخل الإمارة، وأغلق الباب، ولم يخرج إلى الناس إلا يوم السبت لصلاة الفجر. ثم أرسل إلى بني أمية فجمعهم إليه، فدخلوا عليه، وفيهم مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن مُعاوية، فاعتذر إليهم مما كان منه، واتفق معهم أن يركب معهم إلى حسان بن مالك الكلبي، فيتفقوا على رجلٍ يرتضونه من بني أمية للإمارة، فركبوا جميعاً إليه، فبينما هم يسيرون إلى الجابية لقصد حسان، إذ جاء معن بن ثور بن الأخنس في قومه قيس، فقال له: إنك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير، فأجبناك، وأنت الآن ذاهب إلى هذا الأعرابي ليستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن مُعاوية، فقال له الضحاك: وما الرأي؟. قال: الرأي أن نُظهر ما كنا نُسِرّ، وأن ندعو إلى طاعة ابن الزبير، ونُقاتل عليها من أباها. فمال الضحاك بمن معه، فرجع إلى دمشق، فأقام بها بمن معه من الجيش، من قيسٍ ومن لفّ لفيفها، وبعث إلى أمراء الأجناد، وبايع الناس لابن الزبير، وكتب بذلك إلى ابن الزبير يُعلمه بذلك، فذكره ابن الزبير لأهل مكة، وشكره على صنيعه، وكتب إليه بنيابة الشام.

وذُكر أنه إنما دعا إلى بيعة ابن الزبير أولاً، ثم حسّن له عبيد الله بن زياد أن يدعو إلى نفسه، وذلك إنما فعله مَكراً منه وكُبّاراً ليفسد عليه ما هو بصدده، فدعا الضحاك إلى نفسه ثلاثة أيامٍ، فنقم الناس عليه ذلك، وقالوا: دعوتنا إلى بيعة رجلٍ فبايعناه ثم خلعته دون سببٍ، ولا عذرٍ، ثم دعوتنا إلى نفسك. فرجع إلى البيعة لابن الزبير فسقط بذلك عند الناس، وذلك الذي أراد ابن زياد، وكان اجتماع عبيد الله بن زياد به بعد اجتماعه بمروان وتحسينه له أن يدعو إلى نفسه، ثم فارق مروان ليخدع له الضحاك، فنزل عنده بدمشق، وجعل يركب إليه كل يومٍ. ثم أشار ابن زياد على الضحاك أن يخرج من دمشق إلى الصحراء، ويدعو بالجيوش إليه ليكون أمكن له، فركب الضحاك إلى مرج راهط[1] فنزل بمن معه من الجنود، وعند ذلك اجتمع بنو أمية ومن اتبعهم بالأردن، واجتمع إليهم من هنالك من قوم حسان بن مالك بن بحدل من بني كلب.

---

(١) مرج راهط: شمال شرقي دمشق بعشرة كيلومترات تقريباً، شمال بلدة «حرستا» اليوم إلى سفوح الجبل. وبعد أن يقطع المسافر عمران بلدة حرستا يصبح كل ما كان على شماله مرج راهط، وما كان على يمينه مرج عذراء.

خروج مروان:

ولما رأى مروان بن الحكم ما انتظم من البيعة لابن الزبير، وما استوثق له من الملك، عزم على الرحيل إليه لمبايعته، وليأخذ منه أماناً لبني أمية، فسار حتى بلغ أذرعات، فلقيه ابن زياد مقبلاً من العراق، فصدّه عن ذلك، وهجّن رأيه، واجتمع إليه عمرو بن سعيد بن العاص، وحصين بن نميرٍ، وابن زيادٍ، وأهل اليمن، وخلق كثير، فقالوا لمروان: أنت كبير قريشٍ، وخالد بن يزيد غلام، وعبد الله بن الزبير كهل، إنما يقرع الحديد بعضه ببعض، فلا تناوئه بهذا الغلام، وارم بنحرك في نحره، ونحن نُبايعك ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه بالجابية، في يوم الأربعاء لثلاثٍ خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين.

أقام ابن زياد بدمشق، وبنو أمية بتدمر، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية عند خالهم حسان بن مالك بن بحدل بالجابية، والضحاك بمرج راهط. وكتب عبيد الله بن زياد إلى مروان بن الحكم يأمره أن يظهر دعوته، فدعا إلى نفسه، وتزوّج بأم هاشمٍ بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة، وهي زوج يزيد بن معاويةً، أم ابنه خالد، فعظم أمر مروان، وبايعه الناس، واجتمعوا عليه.

سار مروان إلى مرج راهط نحو الضحاك بن قيس، وركب إليه عبيد الله بن زياد وأخوه عبّاد بن زياد[1]، حتى اجتمع إلى مروان ثلاثة عشر ألفاً، وبدمشق من جهته يزيد بن أبي النمر، وقد أخرج عامل الضحاك منها، وهو يمدّ مروان بالسلاح والرجال وغير ذلك، ويقال: كان نائبه على دمشق يومئذٍ عبد الرحمن بن أم الحكم.

عبّأ مروان جماعته فجعل على ميمنته عبيد الله بن زياد، وعلى ميسرته عمرو بن سعيد بن العاص. وبعث الضحاك إلى النعمان بن بشير فأمدّه بأهل حمص عليهم شرحبيل بن ذي الكلاع، وركب إليه زفر بن الحارث الكلابي في أهل قنسرين فكان الضحاك في ثلاثين ألفاً على ميمنته زياد بن عمرو العقيلي، وعلى ميسرته زكريا بن شمر الهلالي، فتصافّوا وتقاتلوا بالمرج عشرين يوماً، يلتقون بالمرج كل يوم فيقتتلون قتالاً شديداً، ثم أشار عبيد الله على مروان أن يدعوهم إلى الموادعة خديعةً، فإن الحرب خدعة، وأنت وأصحابك على الحق، وهم على الباطل، فنودي في الناس بذلك، ثم

---

(١) عباد بن زياد بن أبيه، أبو حرب: كان يقيم بالبصرة، ولاّه معاوية سجستان سنة ثلاثٍ وخمسين، غزا الهند، وتوفي سنة مائة.

غدر أصحاب مروان فمالوا يقتلونهم قتالاً شديداً، وصبر الضحاك صبراً بليغاً، فقُتل الضحاك بن قيس في المعركة، قتله رجل يقال له: زُحْنة بن عبد الله من بني كلب، طعنه بحربةٍ فأنفذه، ولم يعرفه. وصبر مروان وأصحابه صبراً شديداً حتى فرّ أولئك بين يديه، فنادى مروان ألا لا تتبعوا مُدبراً، ثم جيء برأس الضحاك. ويقال: إن أول من بشّره بقتله روح بن زنباع الجذاميّ، واستقرّ ملك الشام بيد مروان بن الحكم. وروي أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط، فقال: أبعد ما كبرت، وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك؟. ولم تطل مدته في الملك إلا تسعة أشهر.

ولما تملّك مروان بن الحكم دمشق خرج النعمان بن بشير[1] هارباً فاتبعه خالد بن خلي الكلاعي فقتله. وقد رثته ابنته فقالت:

---

(١) النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري: وأمه عمرة بنت رواحة، أخت عبد الله بن رواحة. كان النعمان أول مولود ولد بالمدينة بعد الهجرة للأنصار، فأتت به أمه تحمله إلى النبي ﷺ، فحنّكه، وبشّرها بأنه يعيش حميداً، ويُقتل شهيداً، ويدخل الجنة. فعاش في خير وسعة، وسار من المدينة إلى الشام يحمل لمعاوية قميص أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ملطخاً بدمه يوم استشهاده، وفيه أصابع نائلة بنت الفرافصة، زوجة =

لـــيـــت ابـــن مـــزنـــة وابـــنـــه

كـــانـــوا لـــقـــتـــلـــك واقـــيـــه

= الخليفة الشهيد المقتول، رضي الله عنه. ولي نيابة الكوفة لمعاوية تسعة أشهرٍ، ثم سكن الشام، وولي قضاءها بعد فضالة بن عبيد، وفضالة بعد أبي الدرداء. وناب بحمص لمعاوية، وهو الذي ردّ آل الحسين إلى المدينة بأمر يزيد له في ذلك، وهو الذي أشار على يزيد بالإحسان إليهم، فرقّ لهم يزيد، وأحسن إليهم، وأكرمهم.

ويروى أن أعشى همدان قدم على النعمان بن بشير، وهو على حمص، وهو مريض، فقال له النعمان: ما أقدمك؟ قال: لتصلني، وتحفظ قرابتي، وتقضي ديني، فقال: والله ما عندي، ولكني سائلهم لك شيئاً، ثم قام فصعد المنبر، ثم قال: يا أهل حمص، إن هذا ابن عمكم من العراق، وهو مسترفدكم شيئاً فما ترون؟ فقالوا: احتكم في أموالنا، فأبى عليهم، فقالوا: قد حكمنا من أموالنا كل رجلٍ دينارين ـ وكانوا في الديوان عشرين ألف رجل ـ فجعلها له النعمان من بيت المال أربعين ألف دينار، فلما خرجت أعطياتهم أسقط من عطاء كل رجل منهم دينارين.

وله رواية عن رسول الله ﷺ، ومنها، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب». متفق عليه.

وبني أميّة كلّهم
لم تبق منهم باقيه
جاء البريد بقتله
يا للكلاب العاويه
يستفتحون برأسه
دارت عليهم فانيه
فلأبكينّ سريرةً
ولأبكينّ علانيه
ولأبكينّك ما حييـ
ـت مع السباع العاديه

وتوفي مروان في شهر رمضان سنة خمسٍ وستين، وكان قد عهد من بعده لولديه عبد الملك وعبد العزيز، فلما مات مروان جُدّدت البيعة لعبد الملك في الشام ومصر.

عبد الملك بن مروان:

بقي عبد الملك خارجاً على الخليفة عبد الله بن الزبير بل عدّ نفسه هو الخليفة الشرعيّ، كما سبق لأبيه مروان أن فعل، واستتب الوضع لعبد الملك في الشام ومصر.

وكان مروان بن الحكم قد بعث بعثين قبل وفاته، أحدهما بإمرة عبيد الله بن زياد، وسيّره إلى العراق ليأخذها من عمّال عبد الله بن الزبير. والبعث الآخر بإمرة حُبيش بن دُلْجة، وسيّره إلى المدينة ليأخذها من نائب عبد الله بن الزبير.

وقد أعاق أمراء الجزيرة الفراتية سير جيش عبيد الله بن زياد ما يقرب من سنةٍ إذ كانوا يُؤيّدون عبد الله بن الزبير أو يميلون إليه. وقد ركب عبد الملك بن مروان في أول سنة تسعٍ وستين في جنوده قاصداً «قرقيسا» ليُقاتل زُفَر بن الحارث الكلابي الذي أعان سليمان بن صُرَد على جيش مروان حين قاتلوهم بـ«عين الوردة»، وكان من عزم عبد الملك إذا فرغ من ذلك أن يقصد بعدها مصعب بن الزبير. فلما سار عبد الملك استخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بـ«الأشدق» فتحصّن بها وأخذ أموال بيت المال. وقيل: بل كان مع عبد الملك، ولكنه انخذل عنه في طائفةٍ من الجيش، وكرّ راجعاً إلى دمشق في الليل، ومعه حُميد بن حُريث بن بحدل الكلبي، وزهير بن الأبرد الكلبي، فانتهوا إلى دمشق وعليها عبد الرحمن بن أم

الحكم[1] نائباً من جهة عبد الملك، فلما أحسّ بهم هرب، وترك البلد فدخلها عمرو بن سعيد بن العاص فاستحوذ على ما فيها من الخزائن، وخطب الناس فوعدهم العدل والنصف، والعطاء الجزيل، والثناء الجميل، ولما علم عبد الملك بما فعله الأشدق كرّ راجعاً من فوره، فوجد الأشدق قد امتنع في دمشق، وانحاز إلى حصنٍ روميٍّ منيعٍ كان بدمشق فنزله، فحاصره عبد الملك، وقاتله الأشدق مدة ستة عشر يوماً، ثم اصطلحا على ترك القتال، وعلى أن يكون ولي العهد بعد عبد الملك، وعلى أن يكون لكل عاملٍ لعبد الملك عامل له. وكتبا بينهما كتاب أمانٍ.

دخل عبد الملك إلى دمشق إلى دار الإمارة على عادته، وبعث إلى عمرو بن سعيد الأشدق يقول له: ردّ على الناس أُعطياتهم التي أخذتها من بيت المال، فبعث إليه الأشدق: إن هذا ليس إليك، وليس هذا البلد لك،

---

(١) عبد الرحمن بن أم الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن ربيعة الثقفي: أمه أم الحكم بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وهي شقيقة معاوية بن أبي سفيان، فكان ابنها عبد الرحمن يعرف بها، فيُقال: عبد الرحمن بن أم الحكم.

فاخرج منه. وبعد ثلاثة أيامٍ بعث عبد الملك إلى الأشدق يأمره بالإتيان إلى منزلهً بدار الإمارة «الخضراء» وقد نُصح الأشدق بعدم الذهاب، غير أنه لم يُبال، واستعدّ وذهب، فلما دخل إليه احتال عليه وقتله.

هان أمر المسلمين وضعف شأنهم عند الروم الذين رأوا الاختلاف الواقع بين ابن الزبير وبني مروان، فأراد الروم الهجوم على الشام فصالح عبد الملك امبراطور الروم على أن يدفع إليه عبد الملك في كل جمعةٍ ألف دينار.

وفي سنة إحدى وسبعين سار عبد الملك بن مروان في جنودٍ هائلةٍ من الشام قاصداً مصعب بن الزبير فالتقيا، وقد كانا قبلها يركب كل واحدٍ ليلتقي بالآخر فيحول بينهما الشتاء والبرد والوحل، فيرجع كل واحدٍ منهما إلى بلده، فلما كان هذا العام سار إليه عبد الملك، وبعث بين يديه السرايا، ودخل بعض من أرسله إلى البصرة فدعا أهلها إلى عبد الملك في السرّ، فاستجاب له بعضهم. وقد كان مصعب سار إلى الحجاز، ثم رجع ودخل البصرة إثر ذلك، فأنّب الكبراء من الناس وشتمهم ولامهم على دخول أولئك إليهم، وإقرارهم لهم على ذلك، وهدم دور بعضهم، ثم شخص إلى الكوفة. ثم

بلغه قصد عبد الملك له بجنود الشام، فخرج إليه، ووصل عبد الملك إلى «مَسْكِن» إحدى ضواحي الكوفة، وكتب إلى المروانية الذين استجابوا لمن بعثه إليهم فأجابوه، واشترطوا عليه أن يُولّيهم «أصبهان»، فقال: نعم، وهم جماعة كثيرة من الأمراء، وقد جعل عبد الملك على مقدمته أخاه محمد بن مروان[1]، وعلى ميمنته عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية[2].

وكان عبد الملك قد أشار عليه بعض أصحابه أن يُقيم بالشام، وأن يبعث إلى مصعب جيشاً، فأبى، وقال:

---

(١) محمد بن مروان بن الحكم: أمه أم ولد، حدّث عن أبيه، وروى عنه ابنه مروان، والزهري. كان مفرط القوى، شديد البأس، موصوفاً بالشجاعة، كان أخوه عبد الملك يغبطه على ذلك ويحسده، وربما قابله بما يكره، فغضب وتجهّز للرحيل إلى أرمينية، وأتى يُودّع أخاه الخليفة، فقال: أقسمت عليك إلا ما أقمت، فلن ترى بعدها ما تكره، وله حروب ومصافّات مع نصارى الروم مشهودة. توفي عام مائة وواحد، وهو والد مروان آخر خلفاء بني أمية. وكان أمير الجزيرة في عهد أخيه.

(٢) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، أبو هاشم حكيم قريش وعالمها في عصره، اشتغل بالكيمياء، والطب، والنجوم، وألف فيها رسائل، وهو خطيب شاعر، وفصيح جامع، جيد الرأي، كثير الأدب، توفي سنة تسعين.

لعلّي إن بعثت رجلاً شجاعاً كان لا رأي له، ومن له رأي لا شجاعة له، وإني أجد من نفسي بصيراً بالحرب وذا شجاعة، وإن مصعباً في بيت شجاعةٍ، أبوه أشجع قرشيٍّ، وأخوه لا تُجهل شجاعته، وهو شجاع، ومعه من يُخالفه ولا علم له بالحرب، وهو يحبّ الدعة والصفح، ومعي من ينصح لي، ويُوافقني على ما أُريد.

وخرج مصعب، وعلى مقدمته إبراهيم بن الأشتر[1]، وعلى الخيل عتّاب بن ورقاء[2]، وقد اختلف

---

(١) إبراهيم بن مالك (الأشتر) بن الحارث النخعي، ونَخَع عشيرة يمانية من مذحج، قائد شجاع، كان مصعب بن الزبير يعتمد عليه، وقد قاد جيوشه في مواطن الشدّة. قتل مع مصعب، وكان على مقدمته، سنة إحدى وسبعين.

(٢) عتّاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو، أبو ورقاء الرياحيّ، اليربوعيّ، التميميّ: قائد من الأبطال. ولاّه مصعب بن الزبير إمارة أصبهان، وانتدبه لقتال الخارجين عليه في الري، فسار إليهم، ودخل الري عنوة.
انتظم في جيش المهلب بن أبي صفرة، وكان أميراً من أمرائه. ثم انتدبه الحجاج لقتال شبيب بن يزيد الخارجي بعد أن عجزت جيوشه عن مقاومته، وسيّر جيشاً كثيفاً من أهل الشام والعراق، فقاتله قتالاً مرّاً، وسقط عتّاب قتيلاً، قتله عامر بن عمير التغلبي من أصحاب شبيب في موقعة عُرفت بيوم عتّاب، وذلك سنة سبع وسبعين.

أهل العراق على مصعب، وخذلوه، وجعل يتأمل معه فلا يجدهم يقاومون خصومه، فوطّن نفسه على القتال، وقال: لي بالحسين بن عليٍّ أسوة حين امتنع من إلقائه يده ومن الذلّة لعبيد الله بن زياد، وجعل ينشد مسلياً نفسه:

إنّ الأُلى بالطّفّ من آل هاشمٍ
تأسّوا فسنّوا للكرام التأسِّيا

فلما تقارب الجيشان بعث عبد الملك بن مروان إلى أمراء مصعب يدعوهم إلى نفسه، ويعدهم الولايات، فجاء إبراهيم بن الأشتر إلى مصعب فألقى إليه كتاباً مختوماً، وقال: هذا جاءني من عبد الملك، ففتحه، فإذا هو يدعوه إلى الإتيان إليه، وله نيابة العراق، وقال لمصعب: أيها الأمير، إنه لم يبق أحد من أمرائك إلا وجاءه كتاب مثل هذا، فإن أطعتني ضربت أعناقهم. فقال له مصعب: إني لو فعلت ذلك لم تنصحنا عشائرهم بعدهم، فقال: فابعثهم إلى أبيض كسرى، فاسجنهم فيه، فإن كان لك النصر ضربت أعناقهم، وإن كانت عليك خرجوا بعد ذلك. فقال له: يا أبا النعمان، إني لفي شغلٍ عن هذا، ثم قال مصعب: رحم الله أبا بحر - يعني الأحنف - إن كان ليُحذّرني غدر أهل العراق، وكأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه الآن.

ثم تواجه الجيشان بـ«دير الجاثليق» من مَسْكِن، فحمل إبراهيم بن الأشتر ـ وهو أمير مقدمة العراق ـ على محمد بن مروان ـ وهو أمير مقدمة الشام، فأزالهم عن موضعهم، فأردفه عبد الملك بعبد الله بن يزيد بن معاوية فحملوا على ابن الأشتر ومن معه فطحنوهم، وقُتل ابن الأشتر، وقتل معه جماعة من الأمراء. وكان عتّاب بن ورقاء على خيل مصعب فهرب أيضاً، ولجأ إلى عبد الملك بن مروان، وجعل مصعب بن الزبير ـ وهو واقف في القلب ـ ينهض أصحاب الرايات، ويحثّ الشجعان والأبطال أن يتقدّموا أمام القوم، فلا يتحرّك أحد، فجعل يقول: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم، وتفاقم الأمر، واشتدّ القتال، وتخاذلت الرجال، وضاق الحال.

أرسل عبد الملك أخاه إلى مصعب يعطيه الأمان فأبى، وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً.

ونادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب فقال: يا ابن أخي لا تقتل نفسك، لك الأمان، فقال له أبوه مصعب: قد آمنك عمّك فامض إليه، فقال: لا تتحدّث نساء قريشٍ أني أسلمتك للقتل، فقال له: يا بنيّ فاركب خيل السبق فالحق بعمّك فأخبره بما صنع أهل العراق

فإني مقتول هاهنا، فقال: والله إني لا أُخبر عنك أحداً أبداً، ولا أخبر نساء قريشٍ بمصرعك، ولا أُقتل إلا معك، ولكن إن شئت ركبت خيلك وسرنا إلى البصرة فإنهم على الجماعة. فقال: والله لا تتحدّث قريش أني فررت من القتال، فقال لابنه: تقدّم بين يدي حتى أحتسبك، فتقدّم فقاتل حتى قُتل، وأُثخن مصعب بالرمي، فنظر إليه، وهو كذلك فحمل عليه فطعنه فقُتل، وكان ذلك يوم الثلاثاء الثالث عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين.

ولما جاء خبر مقتل مصعب إلى عبد الملك، قال: لقد كان بيني وبين مصعب صحبة قديمة، وكان من أحبّ الناس إليّ، ولكن هذا الملك عقيم. ولقد كانت المحبة والحرمة بيننا قديمة متى تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بمواراته ودفنه هو وإبراهيم بن الأشتر في قبور بـ«مَسْكِن» بالقرب من الكوفة.

ولما قُتل مصعب، وتفرّق من بقي معه ارتحل عبد الملك فنزل النخيلة فوفدت عليه الوفود من رؤساء القبائل وسادات العرب، وبايعه أهل العراق.

ولّى عبد الملك على الكوفة قَطَن بن عبد الله الحارثي أربعين يوماً، ثم عزله، وولّى أخاه بِشْر بن

مروان عليها، وخطب عبد الملك يوماً بالكوفة، فقال في خطبته: إني قد استخلفت عليكم أخي بِشْر بن مروان، وأمرته بالإحسان إلى أهل الطاعة، وبالشدّة على أهل المعصية، فاسمعوا له وأطيعوا. ورجع عبد الملك بعدها إلى الشام.

وابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس، وعمارة الجامع الأقصى سنة ستٍّ وستين، وتمّت الأعمال العمرانية عام ثلاثة وسبعين.

٤ ـ الكوفة:

اجتمع جماعة من أهل الكوفة على سليمان بن صُرَد[1]، وتواعدوا «النخيلة»، ليأخذوا بثأر الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وقد ندموا على ما كان منهم من بعثهم إليه، فلما أتاهم خذلوه، وتخلّوا عنه، ولم

---

(١) سليمان بن صرد: أبو مُطَرِّف الخزاعي، الكوفي، الصحابي، له رواية يسيرة، وعن أُبيّ بن كعب، وجبير بن مطعم. وكان سليمان ممن كاتب الحسين ليُبايعه، فلما عجز عن نصره ندم، وحارب. وكان سليمان ديّناً عابداً خرج في جيشٍ تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين، وساروا للطلب بدمه، وسمّوا جيش التوابين. وكان سليمان في جيش عليّ، رضي الله عنه، يوم صفين، وبارز يومذاك حوشب ذا ظُلَيْم وقتله. أما سليمان فقد قتل في معركة عين الوردة سنة خمس وستين.

ينصروه. فاجتمعوا في دار سليمان بن صُرَد، وكان رؤوس القائمين في ذلك خمسة: سليمان بن صرد، والمسيَّب بن نجبة الفزاري[1]، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي[2]، وعبد الله بن وال التيميّ، ورفاعة بن شداد البجلي[3]، وكلهم من أصحاب عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، فاجتمعوا كلهم بعد خُطَبٍ ومواعظ على تأمير سليمان بن صُرَد عليهم، فتعاهدوا، وتعاقدوا، وتواعدوا النخيلة، وأن يجتمع من يستجيب لهم إلى ذلك الموضع بها في سنة خمس وستين، ثم

---

(١) المسيَّب بن نجبة بن ربيعة بن رياح الفزاري: تابعي، كان رأس قومه، شهد القادسية وفتوح العراق، وكان مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في مشاهده، سكن الكوفة، وثار مع التوّابين، فسيّر إليهم مروان بن الحكم جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد فقاتلوه، وقتل المسيب مع سليمان بن صُرَد في معركة عين الوردة سنة خمس وستين، وكان شجاعاً بطلاً. قال زفر بن الحارث الكلابي في وصفه: فارس مضر الحمراء كلها، إذا عُدّ من أشرافها عشرة كان أحدهم. وكان مُتعبّداً ناسكاً.

(٢) عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي: من أزد شنوءة، أحد رؤساء الكوفة وشجعانها، وآلت إليه إمرة التوابين فقاتل حتى قُتل.

(٣) رفاعة بن شداد البجلي: قارئ من الشجعان المقدّمين، من أهل الكوفة. خرج مع المختار الثقفي يطالب بدم الحسين، ثم تركه إذ تبيّن له عدم صدقه، وعاد فقاتله وأخيراً رجع إليه وقاتل معه حتى قُتل سنة ستٍّ وستين.

جمعوا من أموالهم وأسلحتهم شيئاً كثيراً وأعدوه لذلك.
وقام المسيَّب بن نجبة خطيباً فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد فقد ابتلينا بطول العمر، وكثرة الفتن، وقد ابتلانا الله فوجدنا كاذبين في نصرة ابن بنت رسول الله ﷺ، بعد أن كتبنا إليه، وراسلناه، فأتانا طمعاً في نصرتنا إياه، فخذلناه وأخلفناه، وأتينا به إلى من قتله، وقتل أولاده وذريته وقراباته الأخيار، فما نصرناهم بأيدينا، ولا خذلنا عنهم بألسنتنا، ولا قوّيناهم بأموالنا، فالويل لنا جميعاً ويلاً متصلاً أبداً لا يفتر ولا يبيد دون أن نقتل قاتله والممالئين عليه، أو نُقتل دون ذلك، وتذهب أموالنا، وتخرب ديارنا، أيها الناس قوموا في ذلك قومة رجلٍ واحدٍ، توبوا إلى بارئكم ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾. ثم كتبوا إلى جميع إخوانهم أن يجتمعوا بالنخيلة في السنة الآتية.

وكتب سليمان بن صُرَد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان ـ وهو أمير على المدائن ـ يدعوه إلى ذلك، فاستجاب له، ودعا إليه سعد من أطاعه من أهل المدائن، فبادروا إليه بالاستجابة والقبول، وتواعدوا النخيلة في التاريخ المذكور. وكتب سعد بن حذيفة إلى سليمان بن صُرَد بذلك، ففرح أهل الكوفة من موافقة أهل المدائن

لهم على ذلك، وتنشّطوا لأمرهم الذي تمالؤوا عليه. فلما مات يزيد بن معاوية، ثم ابنه معاوية بن يزيد بعد أبيه بقليل، طمعوا في الأمر، واعتقدوا أن أهل الشام قد ضعُفوا، ولم يبق من يقيم لهم أمراً فاستشاروا سليمان في الظهور، وأن يخرجوا إلى النخيلة قبل الميقات، فنهاهم عن ذلك، وقال: لا حتى يأتي الأجل الذي واعدنا إخواننا فيه، ثم هم في الباطن يعدون السلاح والقوة ولا يشعر بهم جمهور الناس.

وحينئذ عمد جمهور أهل الكوفة إلى عمرو بن حُرَيث[1] نائب عبيد الله بن زياد على الكوفة، فأخرجوه من القصر، وولّوا عليهم عامر بن مسعود بن أمية بن خلف ـ الملقب «دُحْرُوجة» ـ فبايع لعبد الله بن الزبير، فهو يسدّ الأمور حتى تأتي نواب ابن الزبير. فمكث عامر بن مسعود ثلاثة أشهرٍ عاملاً لابن الزبير.

---

(١) عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: ولد عام الهجرة النبوية، أو قبلها بعام. له صحبة ورواية، وروى أيضاً عن أبي بكر، وعبد الله بن مسعود، وسكن الكوفة، وابتنى بها داراً قرب المسجد، وكان زياد بن أبيه إذا انتقل إلى البصرة استخلف عمرو بن حريث على الكوفة، وكذا كان ولده عبيد الله بن زياد، وتوفي عمرو بن حريث سنة خمسٍ وثمانين.

وفي يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان سنة خمسٍ وستين قدم أميران إلى الكوفة من جهة ابن الزبير، أحدهما: عبد الله بن يزيد الخطمي[1]، على الحرب والثغر، والآخر: إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيميّ[2]، على الخراج والأموال. وكان قد قدم إلى الكوفة قبلهما بأسبوعٍ واحدٍ أي في منتصف شهر رمضان من العام نفسه من مكة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وقد جاء إلى العراق برأي عبد الله بن الزبير، ولم يكن ابن الزبير يشكّ في مناصحة المختار له، وفي الحقيقة أن المختار يعمل لغير مصلحة ابن الزبير.

---

(١) عبد الله بن يزيد بن زيد بن حصين الأوسي الخطمي الأنصاري: أبو موسى، أحد من بايع بيعة الرضوان، وكان عمره سبع عشرة سنة، سار للجهاد في أرض العراق، وكان مع أبي عبيد الثقفي يوم الجسر، وروي أن الفيل لما برك على أبي عبيد يوم الجسر فقتله هرب الناس فسبقهم عبد الله بن يزيد الخطمي، فقطع الجسر، وقال: قاتلوا عن أميركم. كان والده يزيد من الصحابة الذين توفوا في حياة الرسول ﷺ. شهد عبد الله بن يزيد مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صفين والنهروان، وولي إمرة الكوفة لابن الزبير، وعُزل بعبد الله بن مطيع، وتوفي قبل سنة سبعين.

(٢) إبراهيم بن محمد بن طلحة: ويقال له: أسد قريشٍ، كان قوّالاً بالحق، فصيحاً، صارماً، أعرج، توفي سنة مائة وست عشرة.

دخل المختار الكوفة فوجد شيعة عليّ، رضي الله عنه، قد التفّت على سليمان بن صُرَد، وعظّموه تعظيماً زائداً، وهم مُعدّون للحرب. فلما استقرّ المختار عندهم بالكوفة دعا إلى إمامة محمد بن علي بن أبي طالب، (ابن الحنفية)، ولقّبه المهدي، فاتبعه كثير من شيعة عليٍّ، وفارقوا سليمان بن صُرَد، وصار هؤلاء الشيعة فرقتين، الجمهور منهم مع سليمان بن صُرَد يريدون الخروج على الناس ليأخذوا بثأر الحسين، وفرقة أخرى مع المختار يريدون الخروج للدعوة إلى الإمام محمد بن عليّ بن أبي طالب (ابن الحنفية)، وذلك من غير أمر ابن الحنفية ورضاه، وإنما يتقوّلون عليه ليُروّجوا على الناس به، وليتوصّلوا إلى أغراضهم الفاسدة، وجاءت العين الصافية إلى عبد الله بن يزيد الخطمي - نائب ابن الزبير - بما تمالأ عليه فرقتا الشيعة على اختلافهما، من الخروج على الناس والدعوة إلى ما يريدون، وأشار من أشار عليه بأن يُبادر إليهم، ويحتاط عليهم، ويبعث الشرط والمقاتلة فيقمعهم عما هم مُجمعون عليه من إرادة الشرّ والفتنة. فقام خطيباً في الناس، وذكر في خطبته ما بلغه عن هؤلاء القوم، وما أجمعوا عليه من الأمر، وأن منهم من يُريد الأخذ بثأر الحسين، ولقد علموا أنني لست ممن قتله، وإني والله لممن أُصيب بقتله، وكره قتله، فرحمه الله،

ولعن قاتله، وإني لا أتعرّض لأحدٍ قبل أن يبدأني بالشرّ، وإن كان هؤلاء يُريدون الأخذ بثأر الحسين فليعمدوا إلى ابن زياد فإنه هو الذي قتل الحسين وخيار أهله، فليأخذوا منه بالثأر، ولا يخرجوا بسلاحهم على أهل بلدهم، فيكون فيه حتفهم واستئصالهم.

فقام إبراهيم بن محمد بن طلحة، الأمير الآخر، فقال: أيها الناس لا يغرنكم من أنفسكم كلام هذا المداهن، إنا والله قد استيقنا من أنفسنا أن قوماً يريدون الخروج علينا، ولنأخذن الوالد بالولد، والولد بالوالد، والحميم بالحميم، والعريف بما في عرافته، حتى تدينوا بالحق، وتذلّوا للطاعة.

وثب المسيَّب بن نجبة الفزاري فقطع كلام إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقال: يا ابن الناكثين، أتهددنا بسيفك وغشمك؟ أنت والله أذلّ من ذلك، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك[1]، وإنا لنرجو أن نُلحقك بهما قبل أن تخرج من هذا القصر. وساعد المسيب بن نجبة من أصحاب إبراهيم بن محمد بن

---

(١) كان قد قتل طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، وولده محمد في معركة الجمل.

طلحة جماعة من العمال، وجرت فتنة وشيء كبير في المسجد، فنزل عبد الله بن يزيد الخطمي عن المنبر، وحاولوا أن يُوفّقوا بين الأميرين فلم يتفق لهم ذلك. ثم ظهر أصحاب سليمان بن صُرَد بالسلاح، وأظهروا ما كان في أنفسهم من الخروج على الناس، وركبوا مع سليمان بن صُرَد فقصدوا الجزيرة.

وأما المختار بن أبي عبيد الثقفي فإنه كان بغيضاً إلى شيعة عليّ بن أبي طالب، من يوم طُعن الحسن وهو ذاهب إلى الشام بأهل العراق، فلجأ المختار إلى المدائن، وأشار على عمّه[1] ـ وهو نائب المدائن ـ بأن يقبض على الحسن ويبعثه إلى مُعاوية فيتخذ بذلك عنده اليد البيضاء، فامتنع عمّ المختار من ذلك، فأبغضته الشيعة بسبب ذلك، فلما كان من أمر مسلم بن عقيل ما كان وقتله من قبل عبيد الله بن زياد، كان المختار يومئذٍ بالكوفة، فبلغ عبيد الله بن زياد أن المختار يقول: لأَقُومَنَّ بنصرة مسلم، ولآخذنّ بثأره، فأحضره بين يديه، وضرب عينه بقضيبٍ كان بيده فشترها[2]، وأمر بسجنه. فلما بلغ أخته سجنه بكت وجزعت عليه، وكانت تحت

(١) سعد بن مسعود الثقفي ـ عم المختار ـ.

(٢) الشتر: انقلاب في جفن العين.

عبد الله بن عمر بن الخطاب، فكتب ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع عنده في إخراج المختار من السجن، فبعث يزيد إلى ابن زياد: أن ساعة وقوفك على هذا الكتاب تخرج المختار بن أبي عبيد من السجن، فلا يمكن لابن زياد غير ذلك، فأخرجه وقال له: إن وجدتك بعد ثلاثة أيامٍ بالكوفة ضربت عنقك، فخرج المختار إلى الحجاز، وهو يقول: والله لأقطعن أنامل عبيد الله بن زياد، ولأقتلنّ بالحسين بن عليٍّ على عدد من قتل بدم يحيى بن زكريا.

انحاز المختار في الحجاز إلى جانب عبد الله بن الزبير، ولما حاصر الحصين بن نمير مع أهل الشام عبد الله بن الزبير قاتل المختار دون ابن الزبير أشدّ القتال. وبعد موت يزيد بن معاوية بدمشق، ورفع الحصار عن ابن الزبير في مكة، واضطرب أهل العراق خرج المختار برأي ابن الزبير من مكة باتجاه العراق، وقصد الكوفة، ولم يكن ابن الزبير يشكّ في مُناصحة المختار له.

دخل المختار الكوفة يوم الجمعة في منتصف رمضان سنة أربع وستين، والناس يتهيؤون للصلاة وذلك قبل أسبوعٍ واحدٍ من وصول عبد الله بن يزيد الخطمي،

وإبراهيم بن محمد بن طلحةِ من قبل ابن الزبير إليها.
فجعل المختار لا يمرّ على رجلٍ إلا سلّم عليه، وقال: أبشروا بالنصر، ودخل المسجد فصلى إلى ساريةٍ هنالك حتى أُقيمت الصلاة، ثم صلى من بعد الصلاة حتى صُلّيت العصر، ثم انصرف فسلّم عليه الناس، وأقبلوا إليه وعليه، وعظّموه، وجعل يدعو إلى إمامة المهدي ـ محمد بن الحنفية ـ ويُظهر الانتصار لآل البيت، وأنه ما جاء إلا بصدد أن يُقيم شعارهم، ويُظهر منارهم، ويستوفي ثأرهم، ويقول للناس الذين اجتمعوا على سليمان بن صُرَد من الشيعة ـ وقد خشي أن يُبادروا إلى الخروج مع سليمان ـ فجعل يُخذّلهم، ويستميلهم إليه، ويقول لهم: إني قد جئتكم من قبل ولي الأمر، ومعدن الفضل، ووصيّ الوصيّ، والإمام المهدي ـ بأمر فيه الشفاء، وكشف الغطاء، وقتل الأعداء، وتمام النعماء.
وإن سليمان بن صُرَد يرحمنا الله وإياه إنما هو غشمة من الغشم، وشنّ بال ليس بذي تجربةٍ للأمور، ولا له علم بالحروب، إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم، وإني إنما أعمل على مثالٍ مُثّل لي، وأمرٍ قد بُيّن لي، فيه عزّ وليّكم، وقتل عدوّكم، وشفاء صدوركم، فاسمعوا مني وأطيعوا أمري، ثم أبشروا وتباشروا، فإني لكم بكل ما تأملون وتحبون كفيل.

التفّ حول المختار خلق كثير من الشيعة، ولكن الجمهور منهم مع سليمان بن صُرَد، فلما خرجوا مع سليمان إلى النخيلة، قال عمر بن سعد بن أبي وقاص، وشَبَث بن رِبْعيّ وغيرهما لعبد الله بن يزيد الخطمي نائب الكوفة: إن المختار بن أبي عبيد أشدّ عليكم من سليمان بن صُرد، فبعث إليه الشرط، فأحاطوا بداره، فأُخذ فذُهب به إلى السجن مُقيّداً.

اجتمع ما يقرب من سبعة عشر ألفاً إلى سليمان بن صُرَد، كلهم يُطالبون بثأر الحسين ممن قتله، ولما خرجوا إلى النخيلة كانوا قليلاً، فلم تُعجب سليمان قلّتهم، فأرسل حكيم بن منقذ فنادى في الكوفة بأعلى صوته: يالثارات الحسين، فلم يزل يُنادي حتى بلغ المسجد الأعظم، فسمع الناس فخرجوا إلى النخيلة، وخرج أشراف الكوفة، فكانوا قريباً من عشرين ألفاً أو يزيدون في ديوان سليمان بن صُرَد، فلما عزم على المسير بهم لم يبق معه منهم سوى أربعة آلاف، فقال المسيّب بن نجبة لسليمان: إنه لا ينفعك الكاره، ولا يُقاتل معك إلا من أخرجته النية، وباع نفسه لله عزّ وجلّ، فلا تنتظرن أحداً، وامض لأمرك في جهاد عدوك، واستعن بالله عليهم. فقام سليمان في أصحابه،

وقال: يا أيها الناس، من كان إنما خرج لوجه الله وثواب الآخرة فذاك منا ونحن منه، ومن كان خروجه معنا للدنيا فليس منا ولا يصحبنا. فقال الباقون معه: ما للدنيا خرجنا، ولا لها طلبنا، فقيل له: أنسير إلى قتلة الحسين بالشام وقتلته عندنا بالكوفة كلهم مثل عمر بن سعد بن أبي وقاص وغيره؟ فقال سليمان: إن ابن زياد هو الذي جهّز الجيش إليه، وفعل به ما فعل، فإذا فرغنا منه عُدنا إلى أعدائنا بالكوفة، ولو قاتلتموهم أولاً ـ وهم أهل مصركم ـ ما عدم الرجل منكم أن يرى رجلاً قد قتل أباه، قد قتل أخاه أو حميمه، فيقع التخاذل، فإذا فرغتم من الفاسق ابن زياد حصل لكم المراد. فقالوا: صدقت. فنادى فيهم: سيروا على اسم الله تعالى، فساروا عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الأول سنة خمس وستين.

وقال في خطبته: من كان خرج منكم للدنيا ذهبها وزبرجدها فليس معنا شيء مما يطلب، وإنما معنا سيوف على عواتقنا، ورماح في أكفّنا، وزاد يكفينا حتى نلقى عدونا. فأجابوه إلى السمع والطاعة والحالة هذه، وقال لهم: عليكم بابن زياد الفاسق أولاً، فليس له إلا السيف، وها هو قد أقبل من الشام قاصداً العراق، فصمم الناس معه على هذا الرأي، فلما أزمعوا على ذلك بعث

عبد الله بن يزيد الخطمي، وإبراهيم بن محمد بن طلحة أمراء الكوفة من جهة ابن الزبير إلى سليمان بن صُرَد يقولان له: إنا نحب أن تكون أيدينا واحدة على ابن زياد، وإنهم يريدون أن يبعثوا معهم جيشاً ليُقوّيهم على ماهم قصدوا له، وبعثوا بريداً بذلك ينتظرهم حتى يقدموا عليه، فتهيّأ سليمان بن صُرَد لقدومهم عليه في رؤوس الأمراء، وجلس في أبهته والجيوش محدقة به، وأقبل عبد الله بن يزيد الخطمي وإبراهيم بن محمد بن طلحة في أشراف أهل الكوفة من غير قتلة الحسين، لئلا يطمعوا فيهم. وكان عمر بن سعد بن أبي وقاص في هذه الأيام كلها لا يبيت إلا في قصر الإمارة عند عبد الله بن يزيد الخطمي خوفاً على نفسه، فلما اجتمع الأميران عند سليمان بن صُرَد، قالا له، وأشارا عليه: أن لا يذهبوا حتى تكون أيديهما واحدة على قتال ابن زياد، ويُجهّزوا معهم جيشاً، فإن أهل الشام جمع كثير، وجم غفير، وهم يُحاجفون[1] عن ابن زياد، فامتنع سليمان من قبول قولهما، وقال: إنا خرجنا لأمرٍ لا نرجع عنه، ولا نتأخر فيه.

---

(١) يحاجفون: يقاتلون ويدافعون.

فانصرف الأميران (عبد الله بن يزيد الخطمي، وإبراهيم بن محمد بن طلحة) راجعين إلى الكوفة، وانتظر سليمان بن صُرَد وأصحابه أصحابهم الذين كانوا قد واعدوهم من أهل البصرة وأهل المدائن، فلم يقدموا عليهم، ولا واحد منهم، فقام سليمان في أصحابه خطيباً، وحرّضهم على الذهاب لما خرجوا عليه، وقال: لو قد سمع إخوانكم بخروجكم للحقوكم سراعاً. فخرج سليمان وأصحابه من النخيلة يوم الجمعة لخمس مضين من ربيعِ الأول سنة خمسٍ وستين، فسار بهم مراحل، ما يتقدّمونَ مرحلةً نحو الشام إلا تخلّف عنه طائفة من الناس الذين معه، فلما مرّوا بقبر الحسين صاحوا صيحةً واحدةً، وتباكوا، وباتوا عنده ليلةً يُصلّون، ويدعون، وظلّوا يوماً يترحّمون عليه، ويستغفرون له، ويترضون عنه، ويتمنّون أن لو كانوا ماتوا معه شهداء.

وتابع سليمان بن صُرَد وأصحابه سيرهم إلى الشام، فلما مرّوا بـ«قَرْقيسياء» تحصّن منهم زُفَر بن الحارث، فبعث إليه سليمان بن صُرَد: إنا لم نأت لقتالكم، فأخرج إلينا سَوْقاً، فإنا إنما نُقيم عندكم يوماً أو بعض يومٍ، فأمر زُفَر بن الحارث أن يخرج إليهم سَوْق، وأمر للرسول إليه وهو المسيّب بن نجبة بفرسٍ وألف

درهم. فقال: أما المال فلا، وأما الفرس فنعم. وبعث زُفَر بن الحارث إلى سليمان بن صُرَد ورؤوس الأمراء الذين معه، إلى كل واحدٍ عشرين جزوراً، وطعاماً، وعلفاً كثيراً، ثم خرج زفر بن الحارث فشيّعهم، وسار مع سليمان بن صُرَد، وقال له: إنه قد بلغني أن أهل الشام قد جهّزوا جيشاً كثيفاً، وعدداً كثيراً لأخذ العراق. فقال سليمان بن صُرَد: على الله توكلنا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ثم عرض عليهم زُفَر أن يدخلوا مدينته، أو يكونوا عند بابها، فإن جاءهم أحد كان معهم عليه، فأبوا أن يقبلوا، وقالوا: قد عرض علينا أهل بلدنا مثل ذلك فامتنعنا. قال: فإذا أبيتم ذلك فبادروهم إلى عين الوردة، فيكون الماء، والمدينة، والأسواق، خلف ظهوركم، وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه، ثم أشار عليهم بما يعتمدونه في حال القتال، فقال: ولا تقاتلوهم في فضاء، فإنهم أكثر منكم عدداً فيُحيطون بكم، فإني لا أرى معكم رجالاً، والقوم ذو رجالٍ وفرسان، ومعهم كراديس فاحذروهم. فأثنى عليه سليمان بن صُرَد والناس خيراً، ثم رجع عنهم، وسار سليمان بن صُرَد، فبادر إلى عين الوردة، فنزل غربيها، وأقام هناك قبل وصول أعدائه إليها، واستراح سليمان وأصحابه واطمأنوا.

موقعة عين الوردة:

لما اقترب أهل الشام من عين الوردة خطب سليمان بن صُرَد أصحابه فرغّبهم في الآخرة، وزهّدهم في الدنيا، وحثّهم على الجهاد، وقال: إن قُتلت، فالأمير عليكم المسيّب بن نجبة، فإن قُتل فعبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قُتل فعبد الله بن والٍ، فإن قُتل فرِفاعة بن شدّاد. ثم بعث بين يديه المسيّب بن نَجَبة في خمسمائة فارسٍ فأغاروا على جيش شرحبيل بن ذي الكلاع، فقتلوا منهم جماعةً، وجرحوا آخرين، واستاقوا نعماً. ووصل الخبر إلى عبيد الله بن زياد، فأرسل بين يديه الحصين بن نمير في اثني عشر ألفاً، فصبّح سليمان بن صُرَد وجيشه واقفون، في يوم الأربعاء لثمانٍ بقين من جمادى الأولى، وحصين بن نمير قائم في اثني عشر ألفاً، وقد تهيّأ كل من الفريقين لصاحبه، فدعا الشاميون أصحاب سليمان بن صُرَد للدخول في طاعة مروان بن الحكم، ودعا أصحاب سليمان الشاميين إلى أن يُسلّموا إليهم عبيد الله بن زياد فيقتلونه عن الحسين، وامتنع كل من الفريقين أن يُجيب إلى ما دعا إليه الآخر، فاقتتلوا قتالاً شديداً عامة يومهم إلى الليل، وكانت الدائرة فيه للعراقيين على الشاميين، فلما أصبحوا أصبح شرحبيل بن ذي الكلاع، وقد وصل إلى الشاميين في ثمانية عشر ألف فارس، وقد أنّبه وشتمه

ابن زياد، فاقتتل الناس في هذا اليوم أيضاً قتالاً عنيفاً لا يحجز بينهم إلا أوقات الصلاة إلى الليل.

فلما أصبح الناس من اليوم الثالث وصل إلى الشاميين أدهم بن مُحرز في عشرة آلاف، وذلك في يوم الجمعة، فاقتتل الناس قتالاً شديداً إلى حين ارتفاع الضحى، ثم استدار أهل الشام بأهل العراق، وأحاطوا بهم من كل جانبٍ، فخطب سليمان بن صُرَد الناس وحرّضهم على القتال، فاقتتل الناس، ثم إن سليمان بن صُرَد قد ترجّل وكسر جَفن سيفه، وترجّل معه ناس كثيرون وكسروا جفون سيوفهم، وحملوا حتى صاروا وسط القوم، وقتلوا من أهل الشام مقتلةً عظيمةً حتى خاضوا في الدماء، وقُتل سليمان بن صُرَد أمير العراقيين، فأخذ الراية المسيّب بن نَجَبة، وقاتل قتالاً شديداً حتى لحق بصاحبه، فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل فقاتل بحماسةٍ، وحمل ربيعة بن مخارق على أهل العراق حملة منكرة، وتبارز هو وعبد الله بن سعد بن نفيل، ثم اتّحدا، فحمل ابن أخي ربيعة على عبد الله بن سعد فقتله، ثم احتمل عمّه. فأخذ راية العراقيين عبد الله بن والٍ، فحرّض الناس على القتال، ثم قُتل، قتله أدهم بن مُحْرز أمير حرب الشاميين ساعتئذٍ، فأخذ راية التوابين

رِفاعة بن شدّاد، فانحاز الناس، وقد دخل الظلام، ورجع الشاميون إلى رحالهم، وانشمر رِفاعة بمن بقي معه راجعاً إلى بلاده. فلما أصبح الشاميون إذا العراقيون قد كرّوا راجعين إلى بلادهم، فلم يبعثوا وراءهم طلباً ولا أحداً، لما لقوا منهم من القتل والجراح. وحُمل رأسا سليمان بن صُرَد والمسيّب بن نجبة إلى مروان بن الحكم بدمشق.

فلما وصل رِفاعة بن شدّاد بمن معه من أهل الكوفة إلى «هيت» إذ سعد بن حذيفة بن اليمان قد أقبل بمن معه من أهل المدائن قاصدين إلى نصرتهم، فلما أخبروه بما كان من أمرهم، وما حلّ بهم، ونعوا إليه أصحابهم، ترحّموا عليهم، واستغفروا لهم، وانصرف أهل المدائن إليها، وأهل الكوفة إليها.

المختار الثقفي:

لما وصل أهل الكوفة إلى بلدهم مع رِفاعة بن شداد، وعلم المختار بما حدث لهم، وكان في السجن، كتب إليهم خفيةً يُعزّيهم بسليمان بن صُرَد، ويعدهم بأنه لو خرج من السجن لقاد الجموع ضدّ قتلة الحسين، ولنال منهم ثأره، فوعدوه بإخراجه متى أراد قهراً غير أنه لم يرغب بهذه الطريقة بل أراد الخروج بالرضا فكتب إلى

عبد الله بن عمر، زوج أخته صفية، وتلطّف إليه بأن يشفع في خروجه عند أميري الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي، وإبراهيم بن محمد بن طلحة، فكتب ابن عمر إليهما يشفع عندهما فيه، فلم يمكنهما ردّه، إذ كتب لهما: قد علمتما ما بيني وبينكما من الودّ، وما بيني وبين المختار من القرابة والصهر، وأنا أقسم عليكما لما خليتما سبيله، والسلام.

فاستدعيا به فضمنه جماعة من أصحابه، واستحلفه عبد الله بن يزيد الخطمي إن هو بغى للمسلمين غائلة فعليه ألف بدنةٍ ينحرها تجاه الكعبة، وكل مملوكٍ له عبد أو أَمَة حرّ، فالتزم لهما بذلك، ولزم منزله. ولكن كثر أصحابه وبايعوه بالسرّ[1]. ولم يزل يقوى أمره حتى عزل عبد الله بن الزبير عن الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي وإبراهيم بن محمد بن طلحة، وبعث عبد الله بن مطيع مكانهما، فدخل الكوفة في شهر رمضان سنة خمس وستين، وخطب الناس، وقال في خطبته: إن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير أمرني أن أسير في فيئكم

---

(١) كان الذي يأخذ البيعة له خمسة، وهم: السائب بن مالك الأشعري، ويزيد بن أنس، وأحمد بن شميط، ورِفاعة بن شدّاد، وعبد الله بن شدّاد الجشمي.

بسيرة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، فقام إليه السائب بن مالك الأشعري، فقال: لا نرضى إلا بسيرة علي بن أبي طالبٍ التي سار بها في بلادنا، ولا نريد سيرة عثمان ـ وتكلم فيه ـ ولا سيرة عمر، وإن كان لا يريد للناس إلا خيراً، وصدّقه على ما قال بعض أمراء الشيعة، فسكت الأمير، وقال: إني سأسير فيكم بما تحبّون من ذلك، وجاء صاحب الشرطة، وهو إياس بن مضارب البجلي إلى ابن مطيع، فقال: إن هذا الذي يردّ عليك من رؤوس أصحاب المختار، ولست آمن المختار، فابعث إليه فاردده إلى السجن فإن عيوني قد أخبروني أن أمره قد استجمع له، وكأنك به وقد وثب في المصر. فأرسل له عبد الله بن مطيع الأمير زائدة بن قدامة وأميراً آخر معه، فدخلا على المختار، فقالا له: أجب الأمير، فتعلّل لهما، وأظهر أنه مريض، وقال: أخبرا الأمير بحالي، فرجعا إلى ابن مطيع، فاعتذرا عنه، فصدّقهما، ولها عنه.

فلما دخلت سنة ستٍ وستين عزم المختار على الخروج لطلب الأخذ بثأر الحسين فيما يزعم، فلما صّمم على ذلك اجتمعت له الشيعة، وثبّطوه عن الخروج الآن إلى وقتٍ آخر، ثم أنفذوا طائفةً منهم إلى محمد بن

الحنفية يسألونه عن أمر المختار، وما دعا إليه، فلما اجتمعوا به كان ملخص ما قال لهم: إنا لا نكره أن ينصرنا الله بمن شاء من خلقه. وقد كان المختار بلغه مخرجهم إلى محمد بن الحنفية، فكره ذلك، وخشي أن يُكذّبه فيما أخبر به عنه، فإنه لم يكن بإذن محمد بن الحنفية، وهمّ بالخروج قبل رجوع أولئك، فلما رجعوا أخبروه بما قال محمد بن الحنفية، فعندئذٍ قوي أمر الشيعة على الخروج مع المختار بن أبي عبيد.

قال أصحاب المختار له: اعلم أن جميع أمراء الكوفة مع عبد الله بن مطيع، وهم إلب علينا، وإنه إن بايعك إبراهيم بن الأشتر النخعيّ وحده أغنانا عن جميع من سواه. فبعث إليه المختار جماعةً يدعونه إلى الدخول معهم في الأخذ بثأر الحسين، وذكّروه سابقة أبيه الأشتر مع علي بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، فقال: قد أجبتكم إلى ما سألتم، على أن أكون أنا وليّ أمركم، فقالوا: إن هذا لا يمكن، لأن المهدي قد بعث لنا المختار وزيراً له وداعياً إليه، فسكت عنهم إبراهيم بن الأشتر، فرجعوا إلى المختار فأخبروه، فمكث ثلاثاً، ثم خرج في جماعة من رؤوس أصحابه إليه، فدخل على ابن الأشتر، فقام إليه، واحترمه وأكرمه، وجلس إليه،

فدعاه إلى الدخول معهم، وأخرج له كتاباً على لسان محمد بن الحنفية يدعوه إلى الدخول مع أصحابه فيما قاموا فيه من نصرة آل بيت النبي ﷺ، والأخذ بثأرهم. فقال ابن الأشتر: إنه قد جاءتني كتب من محمد بن الحنفية بغير هذا النظام، فقال المختار: إن هذا زمان، وهذا زمان. فقال ابن الأشتر: من يشهد أن هذا كتابه؟ فتقدّم جماعة من المختار فشهدوا بذلك، فقام ابن الأشتر من مجلسه وأجلس المختار فيه، وبايعه.

اتفق أصحاب المختار على أن يكون خروجهم ليلة الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيعِ الأول من سنة ستٍ وستين.

ولما بلغ ابن مطيع أمر القوم، وما اشتوروا عليه بعث الشرط في كل جانبٍ من جوانب الكوفة، وألزم كل أميرٍ أن يحفظ ناحيته من أن يخرج منها أحد، فلما كان ليلة الثلاثاء خرج إبراهيم بن الأشتر قاصداً دار المختار في مائة رجلٍ من قومه، وعليهم الدروع تحت الأقبية، فلقيه إياس بن مضارب، فقال له: أين تريد يا ابن الأشتر في هذه الساعة؟ إن أمرك لمريب، فوالله لا أدعك حتى أحضرك إلى الأمير فيرى فيك رأيه، فتناول ابن الأشتر رمحاً من يد رجلٍ فطعنه في ثغرة نحره فسقط، وأمر

لاً فاحتزّ رأسه، وذهب به إلى المختار، فألقاه بين
يه. ثم إن إبراهيم بن الأشتر قد طلب من المختار أن
رج في هذه الليلة.

خرج المختار، واجتمع حوله أربعة آلافٍ، وخرج
ن يديه إبراهيم بن الأشتر، وجهّز ابن مطيع جيشه،
ان ثلاثة آلافٍ وعليهم شَبَث بن رِبْعيّ، وأربعة آلافٍ
ليهم راشد بن إياس بن مضارب، فوجّه المختار
مائة فارس وستمائة راجلٍ بإمرة إبراهيم بن الأشتر إلى
مد بن إياس بن مضاربٍ، ونعيم بن هبيرة في ثلاثمائة
س وستمائة راجلٍ إلى شَبَث بن رِبْعيّ.

استطاع إبراهيم بن الأشتر أن يقتل قرنه راشد بن
س وينتصر على من معه، وأما عمر بن هبيرة فقد هُزم
ل على يد شَبَث بن رِبْعِيّ، وسار شَبَث إلى المختار
حاصره، فأقبل إبراهيم بن الأشتر نحوه فاعترضه
مان بن فائد العبسيّ في قوةٍ فقاتله وتغلّب إبراهيم على
صمه، وتابع سيره إلى المختار، فقاتل شبث بن رِبْعيّ
صر عليه، وأنقذ المختار.

خرج المختار وأصحابه إلى ظاهر الكوفة، فقال
اهيم بن الأشتر للمختار: اعمد بنا إلى قصر الإمارة
س دونه أحد يردّ عنه، فساروا نحو القصر، وجرى

قتال بين الطرفين، وانتصر فيه المختار وجيشه، وطوّقوا عبد الله بن مطيع في قصره ثلاثة أيام، ثم خرج عبد الله بن مطيع متخفياً، فدخل دار أبي موسى الأشعري. أما جيش الكوفة فقد طلب أمراؤه الأمان من المختار فأمّنهم، فخرجوا من القصر، وجاؤوا إلى المختار فبايعوه، ودخل المختار القصر. جاء رجل إلى المختار، وقال له: إن عبد الله بن مطيع في دار أبي موسى، فتجاهل المختار كلام الرجل، فكرّر ذلك عليه ثلاث مراتٍ، والمختار يُعرض عنه، فسكت الرجل. فلما كان الليل بعث المختار إلى عبد الله بن مطيع بمائة ألف درهم، وقال له: اذهب فقد أخذت بمكانك ـ وكان صديقاً له قبل ذلك ـ فذهب ابن مطيع إلى البصرة، وكره أن يرجع إلى ابن الزبير وهو مغلوب.

بعث المختار الأمراء إلى النواحي والبلدان من أرض العراق وخراسان، وعقد الألوية والرايات، وجعل يجلس للناس غدوةً وعشيةً يحكم بينهم. واستقضى شريحاً[1]، ثم عزله، وجعل مكانه عبد الله بن عتبة بن

---

(١) شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أبو أمية: من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام، أصله اليمن، ولي قضاء الكوفة زمن عمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية. ثم =

مسعود، ثم عزله، وجعل مكانه عبد الله بن مالك الطائي قاضياً.

أخذ المختار يتتبع قتلة الحسين فيقتل من تطاله يده. وكان عبيد الله بن زياد قد وجّهه مروان بن الحكم من دمشق إلى الكوفة، وأمره إن ظفر فليبح الكوفة ثلاثة أيام، فسار ابن زياد قاصداً الكوفة، فلقي جيش التوابين فقاتلهم في عين الوردة فهزمهم، رجعت فلولهم إلى الكوفة، أما هو فقد وجد قيس عيلان في الجزيرة، وهم من أنصار ابن الزبير فقاتلهم الأمر الذي جعله يتأخّر سنةً، فلما انتهى منهم، ووصل إلى الموصل انحاز أميرها إلى «تكريت»، وكتب إلى المختار يعلمه بذلك، فندب المختار لقتال ابن زياد ثلاثة آلافٍ اختارها، وأمّر عليهم يزيد بن أنس. ولما علم عبيد الله بن زياد بمخرج أهل الكوفة جهّز سريتين تعدّ كل واحدةً منهما ثلاثة آلاف مقاتلٍ، إحداهما بإمرة ربيعة بن مُخارق، والأخرى بإمرة عبد الله بن حَمْلة الخثعمي، وقال: أيكم سبق فهو

= استقضاه المختار بن أبي عبيد عندما سيطر على الكوفة مدةً، ثم عزله، وعاد إلى القضاء بعد مدة، استعفى من الحجاج فأعفاه سنة سبع وسبعين. كان ثقةً في الحديث، مأموناً في القضاء، له باع في الأدب والشعر، توفي سنة ثمانٍ وسبعين، وقد عمر طويلاً.

الأمير، وإن سبقتما معاً فالأمير عليكم أسنّكما، فسبق ربيعة بن مُخارق إلى يزيد بن أنس، فالتقيا في طرف أرض الموصل مما يلي الكوفة، فتواقفا هنالك، ويزيد بن أنس مريض مُدْنف، ومع ذلك يُحرّض على القتال، ويدور على الأرباع، وهو محمول مُضنى، وقال للناس: إن هلكت فالأمير على الناس عبد الله بن ضَمْرة الفزاري، وهو رأس الميمنة، وإن هلك فمسعر بن أبي مسعر، رأس الميسرة، وكان ورقاء بن خالد الأسدي على الخيل، ويزيد بن أنس وهؤلاء الثلاثة أمراء الأرباع، وكان اللقاء بين الطرفين يوم عرفة عند الفجر من سنة ستٍّ وستين، فحمل ورقاء بن خالد الأسدي على الخيل، وفرّ الشاميون، وقُتل أميرهم ربيعة بن مُخارق، واحتاز جيش المختار ما في معسكر الشاميين، والتقى الشاميون المنهزمون مع الأمير الآخر عبد الله بن حَمْلة، فرجعوا معه إلى يزيد بن أنس فالتقى الطرفان مساءً، فبات الناس مُتحاجزين، فلما أصبحوا اقتتلوا قتالاً شديداً، وذلك يوم الأضحى سنة ستٍّ وستين، فهزم جيش المختار جيش الشاميين أيضاً، وقتلوا أميرهم عبد الله بن حَمْلة، واحتووا على ما في معسكرهم، وأسروا منهم ثلاثمائة أسيرٍ، فجاؤوا بهم إلى يزيد بن أنس، وهو على آخر رمقٍ، فأمر بضرب أعناقهم.

ومات يزيد بن أنس من يومه ذلك، ودبّ الحزن والخوف في نفوس بعض أصحابه فأخذوا يتسللون راجعين إلى الكوفة، فقال لهم ورقاء بن خالد الأسدي الذي غدا أمير جيش الكوفة: يا قوم، ماذا ترون؟ إنه قد بلغني أن عبيد الله بن زياد قد أقبل في ثمانين ألفاً من الشام، ولا أرى لكم بهم طاقة، وقد هلك أميرنا، وتفرّق عنا طائفة من الجيش من أصحابنا فلو انصرفنا راجعين إلى بلادنا، ونُظهر أنا إنما انصرفنا حزناً على أميرنا لكان خيراً لنا من أن نلقاهم فيهزموننا فنرجع مغلوبين، فاتفق رأي الأمراء على ذلك، فرجعوا إلى الكوفة.

لما رأى أهل الكوفة عودة جيشهم دون نتيجة وهلاك أميره يزيد بن أنس سرت شائعات عن هزيمة الجيش ومقتل قائده، ويعني ذلك كذب المختار، فأزمعوا الخروج عليه، ولكن انتظروا خروج إبراهيم بن الأشتر الذي كلّفه المختار بالخروج مع سبعة آلاف مقاتل للقاء عبيد الله بن زياد. وعندما خرج ابن الأشتر مع جيشه ثار عليه الناس، فأرسل إلى ابن الأشتر بالعودة، وأخذ المختار يماطل الناقمين عليه، فلما عاد ابن الأشتر بدأ القتال بين الفريقين فانتصر المختار على خصومه الناقمين عليه، وكان ذلك

يوم الأربعاء لستٍّ بقين من ذي الحجة سنة ستٍّ وستين.

هرب أشراف الكوفة إلى البصرة حيث كان أميرها مصعب بن الزبير، كما هرب كل من ساهم في مقتل الحسين، حيث كان المختار قد أمر بقتل من شهد مقتل الحسين، وكان ممن هرب شَمِر بن ذي الجوشن الذي قتل الحسين، فقُتل بالطريق، وقتل في الكوفة خَوْليّ بن يزيد الأشجعيّ الذي احتزّ رأس الحسين، وقتل عمر بن سعد بن أبي وقّاص بعد أن استجار بعبد الله بن جعدة بن هبيرة الذي أخذ له الأمان من المختار، ولكن قتله بعد مدةٍ، كما قتل عدداً ممن كان له يد في حادثة كربلاء.

ولما عرف المختار أن عبيد الله بن زياد يقصد الكوفة بجيشٍ كثيفٍ رجع المختار يُصانع عبد الله بن الزبير، ويدّعي أنه قد بايعه على السمع والطاعة، وأنه لا يزال على العهد، وكتب له بذلك، فلما وصل كتاب المختار إلى عبد الله بن الزبير أراد أن يختبره، فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وقال له: تجهّز إلى الكوفة فقد ولّيتكها، فقال: وكيف وبها المختار؟ فقال: يزعم أنا سامع لنا مطيع، وأعطاه أربعين ألفاً يتجهّز بها. فسار عمر بن عبد الرحمن فلما

كان ببعض الطريق لقيه زائدة بن قدامة[1] من قبل المختار في خمسمائة فارسٍ، ومعه سبعون ألفاً من المال، وقد أمره المختار أن يُعطيه المال مقابل انصرافه، وإن لم يفعل يُقاتله حتى ينصرف، فلما رأى عمر بن عبد الرحمن الجد قبض المال، وسار إلى البصرة فاجتمع هو وعبد الله بن مطيع فيها عند أميرها الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك قبل وصول مصعب بن الزبير إليها.

سار إبراهيم بن الأشتر يوم السبت لثلاثٍ بقين من ذي الحجة سنة ستٍّ وستين بأمر من المختار للقاء عبيد الله بن زياد، وقال له: يا ابن الأشتر اتق الله في سرّك وعلانيتك، وأسرع السير، وعاجل عدوك بالقتال. والتقى الطرفان، فكان اجتماعهما بمكانٍ يُقال له «الخازر» بينه وبين الموصل خمسة فراسخ.

عبّأ عبيد الله بن زياد جيشه فكان الحصين بن نمير

---

(١) زائدة بن قدامة بن مسعود الثقفي: قائد من الشجعان، من أهل الكوفة، وهو ابن عم المختار بن أبي عبيد، سيّره الحجاج لقتال شبيب بن يزيد الخارجي، فنشبت بينهما معارك قتل في إحداها زائدة بأسفل الفرات، وذلك سنة ستٍ وسبعين.

على الميمنة، وعمير بن الحباب السلمي[1] على الميسرة، وشرحبيل بن ذي الكلاع على الخيل، وكان عبيد الله بن زياد في الرجالة يمشي معهم، ويقال: إن أمير الميسرة في جيش الشام عمير بن الحباب السلمي كان قد التقى مع إبراهيم بن الأشتر، ووعده أنه معه، وأنه سينهزم بالناس غداً عندما تبدأ المعركة.

حمل الحصين بن نمير بالميمنة على ميسرة أهل العراق، فهزمها، وقتل أميرها علي بن مالك الجشمي، فأخذ رايته من بعده ولده محمد بن عليٍّ، فقُتل أيضاً، وبقيت ميسرة أهل العراق مولّية فجعل ابن الأشتر يناديهم حتى انعطفوا عليه، واجتمعوا إليه. وحملت ميمنة أهل العراق على ميسرة أهل الشام فتراجعت، وقيل: بل انحازت إلى أهل العراق. وحمل ابن الأشتر حملةً عنيفةً، فانهزم جيش الشام، وثبت عبيد الله بن زياد،

---

(١) عمير بن الحباب بن جعدة السلمي: رأس القيسية بالعراق، وأحد الأبطال الدهاة، كان ممن قاتل مع إبراهيم بن الأشتر في «الخازر» عبيد الله بن زياد، وكان معه من قبل ثم أتى «قرقيسيا» خارجاً على عبد الملك بن مروان، وتغلّب على «نصيبين»، واجتمعت عليه كلمة قيس كلها، نشبت بينه وبين اليمانية وبني كلب وتغلب وقائع، قُتل في آخرها سنة سبعين، قتله بنو تغلب.

وقتله ابن الأشتر، وهو لا يعرفه، ولما فُتّش عليه بين القتلى، وعُرف احتزّ رأسه، وبُعث إلى المختار بالكوفة. وقُتل من رؤوس أهل الشام أيضاً: الحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وتتبع الكوفيون أهل الشام فقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وغرق منهم أكثر ممن قُتل، واحتازوا ما في معسكرهم من الأموال والخيول.

بعث إبراهيم بن الأشتر نائباً له على «نصيبين»، واستمرّ مقيماً في تلك البلاد، وبعث عمالاً إلى الموصل، وأخذ «سنجار» و«دارا» وما ولاها من أرض الجزيرة. وكان مقتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة سبعٍ وستين.

وبعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير والياً على البصرة مكان الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي المعروف بـ(القُبَاع) الذي عزله، وذلك ليكون والي البصرة (مصعب) قِرناً وكفؤاً للمختار. فلما قدم مصعب البصرة دخلها مُتلثّماً فيمم المنبر، فقال الناس: أمير أمير، فلما كشف مصعب اللثام عرفه الناس فأقبلوا إليه، وجاء الأمير السابق الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة فجلس تحته بدرجة، فلما اجتمع الناس خطبهم مصعب، وكان مما قاله: يا أهل البصرة إنكم تلقبون

أمراءكم، وقد سمّيت نفسي الجزّار، فاجتمع عليه الناس وفرحوا. وكان قد فرّ عدد من أهل الكوفة خوفاً من المختار وكرهاً له والتجؤوا إلى البصرة، منهم من ارتحل عن الكوفة فاراً منها يوم وقع القتال بينهم وبين المختار، وقد هُزموا يومئذٍ أمامه، ومنهم من تسلّل هارباً يوم خرج المختار من الكوفة لاستقبال البشارة بنصر ابن الأشتر وقتل عبيد الله بن زياد.

وكان إبراهيم بن الأشتر قد استقلّ بإقليم الجزيرة بعد انتصاره على ابن زياد، وابتعد عن المختار، بل أصبح يستهين به، وبذا فقد المختار سيفاً صارماً من سيوفه كان يضرب به خصومه، ويُهدّد أعداءه، وببُعد ابن الأشتر عن الكوفة قلّت هيبة المختار وضعف أمره، وهذا ما أطمع مصعب بن الزبير به فبعث محمد بن الأشعث بن قيس[1] على البريد إلى المهلب بن أبي صفرة[2] والي خراسان من قبل ابن الزبير، فجاءه مع مالٍ

---

(١) محمد بن الأشعث بن قيس الكندي: أبو القاسم، من رجال مصعب بن الزبير، كان معه في حربه ضد المختار بن أبي عبيد، وقتل عام سبع وستين قبل مقتل المختار بأيام.

(٢) المهلب بن أبيَ صفرة بن ظالم بن سراق الأزدي العتكي: أبو سعيد، ولد عام الفتح، أمير، جواد، قال عنه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق. نشأ بالبصرة، وقدم المدينة مع =

كثيرٍ وعددٍ كثيفٍ من الرجال، ففرح أهل البصرة، وارتفعت معنوياتهم، وقوي أمر مصعب.

عبّأ مصعب جيشه فجعل على ميمنته عمر بن عبيد الله بن معمر، وعلى ميسرته المهلب بن أبي صفرة، وقدّم بين يديه عبّاد بن الحصين[1]، ورتّب الأمراء على

= أبيه أيام عمر، ولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير، فقئت عينه بسمرقند، انتدب لقتال الأزارقة من الخوارج، وبقي يقاتلهم تسع عشرة سنة. وكان له شرط على الأمير أن كل بلدٍ يجليهم عنه يكون له حق التصرف في خراجه ذلك العام. وقد لقي الأهوال في حربهم، ثم ظفر بهم، فقتل كثيرين منهم، وشرّد بقيّتهم في البلاد. ولاّه عبد الملك بن مروان خراسان سنة تسع وسبعين، فمات فيها سنة ثلاثٍ وثمانين، وتولّى خراسان بعده ابنه يزيد.
حدّث المهلب عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسَمُرة بن جندب، والبراء بن عازب.
غزا المهلب الهند سنة أربعٍ وأربعين.
قال محمد بن سلام الجمحي: كان بالبصرة أربعة ليس مثلهم: الأحنف في حلمه وعفافه ومنزلته من عليٍّ، والحسن في زهده وفصاحته وسخائه ومحلّه من القلوب، والمهلب بن أبي صفرة، وسوّار القاضي في عفافه وتحرّيه للحق.

(١) عبّاد بن الحصين بن يزيد بن عمرو الحبطي التميمي: أبو جهضم، فارس تميم في عصره، ولي شرطة البصرة أيام ابن الزبير، وكان مع مصعب بن الزبير أيام قتال المختار بن أبي عبيد، وشهد فتح كابل مع عبد الله بن عامر. وأدرك حركة عبد الرحمن بن الأشعث، وهو شيخ مفلوج، رحل إلى كابل فقتله العدو هناك.

راياتهم وقبائلهم: الأحنف بن قيس، وزياد بن عمر، قيس بن الهيثم، كمال بن مِسْمع. وخرج المختار بن أبي عبيد في عسكره، فنزل المذار، وقد جعل على مقدمته أبا كامل الشاكري، وعلى ميمنته عبد الله بن كامل، وعلى ميسرته عبد الله بن وهب الجشمي، وعلى الخيل وزير بن عبد الله السلولي، وجعل على الموالي صاحب شرطته أبا عمرة.

التقى الطرفان، فهُزم أصحاب المختار. وقُتل منهم عدد كبير، وعندما بلغ الخبر المختار، حصّن القصر، وجعل عليه عبد الله بن شداد، وخرج بمن بقي معه إلى «حروراء»، وجاءه مصعب في عسكره، فدارت الدائرة أيضاً على المختار وجماعته، فارتد هارباً إلى قصر الكوفة، وتبعه مصعب، وحاصره، ومنع عنه الماء والمواد، فكان المختار يخرج فيُقاتلهم، ثم يعود إلى القصر، ولما اشتدّ عليه الحصار قال لأصحابه: إن الحصار لا يزيدنا إلا ضعفاً، فانزلوا بنا نُقاتل حتى الليل حتى نموت كراماً، فوهنوا، فقال: أما والله لا أُعطي بيدي، ثم اغتسل، وتطيّب، وتحنّط وخرج فقاتل هو ومن معه حتى قُتلوا. وكان الذي قتل المختار، أخوان شقيقان، هما: طَرَفة وطَرّاف ابنا عبد الله بن دجاجة من

بني حنيفة، فقتلاه، واحتزّا رأسه، وأتيا به إلى مصعب بن الزبير.

استقرّ مصعب بن الزبير بالكوفة، وبعث إلى إبراهيم بن الأشتر ليقدم عليه، وفي الوقت نفسه كان عبد الملك بن مروان بدمشق قد بعث إلى إبراهيم ليقدم عليه، فحار ابن الأشتر في أمره، وشاور أصحابه إلى أيهما يذهب، ثم اتفق رأيهم على الذهاب إلى بلدهم الكوفة، فقدم ابن الأشتر على مصعب فأكرمه، واحترمه كثيراً.

بعث مصعب بن الزبير على الموصل، والجزيرة، وأذربيجان، وأرمينية المهلب بن أبي صفرة. وكان قد استخلف على البصرة حين خرج منها عبيد الله بن عبد الله بن معمر، وأقام هو بالكوفة.

عزل عبد الله بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير عن البصرة. وولّى مكانه ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير، ثم لم يلبث أن ظهر له أن ولده حمزة لم يكن أهلاً لذلك، وخاصةً بعد أن بعث له الأحنف بن قيس رسالةً يُبيّن له عدم إمكانية ولده للقيام بمثل هذه المهمة رغم ما عُرف عنه من الشجاعة إذ لا تكفي الشجاعة وحدها لإدارة الأمور حيث لا بد من الحكمة لذا فقد ردّ عبد الله بن

الزبير البصرة إلى أخيه مصعب إضافةً إلى الكوفة، فارتحل مصعب من الكوفة إلى البصرة، واستخلف على الكوفة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة (القُباع)، واستعمل على المدينة جابر بن الأسود بن عوف الزهري بعد أن عزل عنها عبد الرحمن بن الأشعث.

نقل مصعب بن الزبير من ناحية فارس إلى الجزيرة المهلب بن أبي صفرة الذي كان قد أخمد صوت الخوارج في فارس، وكسر شوكتهم، فلما انتقل علا شأنهم وثاروا على الوالي الجديد عمر بن عبيد الله بن مَعْمر بإمرة الزبير بن الماحوز، لكن الوالي قهرهم، ففرّوا إلى «اصطخر» فتبعهم، وقتل منهم مقتلةً عظيمةً، وقتلوا ابنه، ثم ظفر بهم أخرى، ففرّوا إلى «أصبهان» فقوي أمرهم هناك، وزاد عددهم، ثم أقبلوا يريدون البصرة، فمرّوا ببلاد فارس، وتركوا عمر بن عبيد الله وراء ظهورهم، فلما سمع بهم مصعب بن الزبير ركب في الناس، وجعل يلوم عمر بن عبيد الله بتركه هؤلاء يجتازون بلاده.

ركب عمر بن عبيد الله في آثار الخوارج فبلغهم أن مصعباً أمامهم وعمر وراءهم، فعدلوا إلى «المدائن»، وارتكبوا الجرائم، فقصدهم أمير الكوفة الحارث بن

عبد الله بن أبي ربيعة، ومعه إبراهيم بن الأشتر، وشَبَث بن رِبْعي فهربوا من وجهه فأتبعهم عبد الرحمن بن مخنف[1] حتى صاروا إلى أصبهان، فانصرف عنهم، ولم يُقاتلهم، فعادوا وحاصروا عتّاب بن ورقاء شهراً بمدينة «جيا» حتى ضيّقوا على الناس فنزلوا إليهم فقاتلوهم فكشفوهم، وقتلوا أميرهم الزبير[2] بن الماحوز، وغنموا ما في معسكرهم، وأمّرت الخوارج

---

(١) عبد الرحمن بن مخنف الأزدي: قائد من الشجعان، انتهت إليه سيادة «أزدشنوءة» وأزد «عُمان»، كان مع المهلب بن أبي صفرة في قتال الخوارج، فقتل في «كازرون» من بلاد فارس.

(٢) الزبير بن علي السليطي اليربوعي، ابن أبي الماحوز: زعيم الأزارقة بعد مقتل عبيد الله بن بشير بن الماحوز سنة خمسٍ وستين في حربه مع المهلب، وكانت بيعتهم للزبير في «أرجان»، وسار منها إلى الري، فأعانه أهلها على أميرهم يزيد بن الحارث الشيباني، وظفر الزبير، وقتل يزيد. وتقدّم الزبير بجيش الأزارقة إلى «أصبهان» والأمير فيها عتّاب بن ورقاء الرياحي، فحاصروها سبعة أشهر، وصبر لهم عتّاب، يقاتلهم بين وقتٍ وآخر على باب المدينة، ويلجأ إليها، وقلّ ما عنده من الزاد، وأصاب أصحابه جهد شديد، فخرج خروج المستميت، وتبعه ألفان وسبعمائة فارس. ولم يشعر الأزارقة إلا وقد دهموهم، وقتل من الأزارقة خلق كثير، وتغلغلت خيل عتّاب في جموعهم، وسقط الزبير قتيلاً في المعركة، وذلك سنة ثمانٍ وستين.

قطري بن الفجاءة[1]، ثم ساروا إلى بلاد الأهواز، فكتب مصعب بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة - وهوعلى الموصل - أن يسير إلى قتال الخوارج، وكان أبصر الناس بقتالهم، وبعث مكانه إلى الموصل إبراهيم بن الأشتر، فانصرف المهلب إلى الأهواز فقاتل فيها الخوارج ثمانية أشهرٍ قتالاً عنيفاً.

وسار مصعب بن الزبير سنة سبعين من البصرة لأداء العمرة، ولزيارة أخيه، وحمل معه أموالاً كثيرة، فأعطى بالحجاز مُنحاً جزيلةً. ولما رجع إلى مقره في الكوفة وجد أن الأمر قد اختلف إذ كان عبد الملك قد أرسل رجالاً يدعون له سرّاً. وقد منّوا أُناساً، وأغروا آخرين، وقد وافق أكثر من اتصلوا بهم، أو سكتوا على الأقل، ودليل رضاهم، أنهم لم يُخبروا مصعباً عما جرى بعد أن عاد إليهم، غير أنه عرف بعض الأمر من لقائه مع رؤساء القبائل، وأعيان الناس، وحديثه مع

---

(١) قطري بن الفجاءة (أبو نعامة)، واسمه جعونة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي، من قطر من رؤساء الأزارقة الخوارج وأبطالهم، كان فارساً شاعراً، وبقي ثلاث عشرة سنة يقاتل، ويسلم عليه بالخلافة وإمرة المؤمنين. وكانت كنيته في الحرب أبا نعامة (نعامة فرسه)، وفي السلم أبا محمد. عثرت به فرسه فقُتل، وجيء برأسه إلى الحجاج سنة ثمان وسبعين.

الأمراء. ولم يلبث أن جاء عبد الملك بجندٍ من الشام.

٥ ـ البصرة:

كان عبيد الله بن زياد والياً على البصرة فلما توفّي الخليفة يزيد بن مُعاوية بايع أهل البصرة عبيد الله بن زياد على أن يقوم بأمرهم حتى يصطلح الناس على إمامٍ يرتضونه لأنفسهم، ثم أرسل عبيد الله رسولاً إلى الكوفة يدعوهم إلى مثل الذي فعل أهل البصرة فأبوا عليه، وحصبوا نائب عبيد الله على الكوفة وهو عمرو بن حريث. ثم خالف أهل البصرة عبيد الله بن زياد أيضاً، فهاجت بالبصرة فتنة، فرّ إثرها عبيد الله بن زياد إلى الشام.

اجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم أميراً منهم يصلّي بهم حتى يجتمع الناس على إمام، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهراً، ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل(١) فصلّى بهم شهرين، ثم قدم عليهم عمرو بن عبيد الله بن معمر من قبل

---

(١) عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي القرشي: والٍ، من أشراف قريشٍ، من أهل المدينة، أمه هند أخت معاوية بن أبي سفيان، كان ورعاً، ولاّه ابن الزبير البصرة.

توفي في عُمان وقد هرب إليها عندما حدثت حركة عبد الرحمن بن الأشعث، وقد توفي عام أربعةٍ وثمانين.

عبد الله بن الزبير، فمكث شهراً، ثم أرسل ابن الزبير مكانه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وهكذا اجتمعت كلمة المصرين الكوفة والبصرة على عبد الله بن الزبير.

وقويت شوكة الخوارج بالبصرة، وقتل نافع بن الأزرق، فرأست الخوارج عليهم عبيد الله بن ماحوز، فسار بهم إلى المدائن، فقاتلوا أهلها وغلبوا على الأهواز وغيرها، وجبوا الأموال، وجاءتهم الإمدادات من اليمامة والبحرين، فساروا إلى أصفهان فتلقّاهم أميرها عتّاب بن ورقاء الرياحي فهزمهم، ولما قتل أمير الخوارج عبيد الله بن ماحوز أقاموا عليهم قطريّ بن الفجاءة.

ولما بلغ مقتل مصعب بن الزبير أهل البصرة تنازع في إمارتها أبان بن عثمان بن عفان، وعبيد الله بن أبي بكرة[1]، فغلبه أبان عليها، فبايعه أهلها.

بعث عبد الملك بن مروان إلى البصرة خالد بن

---

(١) عبيد الله بن أبي بكرة (نفيع بن الحارث) الثقفي، أبو حاتم: تابعي، ثقة، من أهل البصرة، كان أمير سجستان (٥٠ ـ ٥٣هـ) ثم عُزل عنها، ولكن عاد إليها أيام إمرة الحجاج بن يوسف الثقفي، وولي قضاء البصرة، وكان أسود اللون، جواداً، ذا ثروة كبيرة توفي سنة تسعٍ وسبعين.

عبد الله بن خالد بن أسيد ليتولّى أمرها، فأخذها من أبان، واستناب عليها عبيد الله بن أبي بكرة.

وشغل خالد بن عبد الله بقتال الخوارج: أبي فديك في البحرين واليمامة، وأصحاب قطري بن الفجاءة من الأزارقة بالأهواز.

واستعمل عبد الملك على همدان محمد بن عمير، وعلى الريّ يزيد بن رؤيم، وفرّق العمال. ولم يَفِ لأحدٍ شرَط عليه ولاية أصبهان. وأقرّ المهلب بن أبي صفرة على عمله.

ولجأ بعض أصحاب مصعب البارزين إلى بعض الأعيان، فقد لجأ عبد الله بن يزيد بن أسد، ويحيى بن معيوف الهمداني إلى عليّ بن عبد الله بن عباس، ولجأ الهذيل بن زفر بن الحارث، وعمر بن زيد الحكميّ إلى خالد بن يزيد بن معاوية، فأمّنهم عبد الملك فظهروا.

وأما خراسان فإنه بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية بايع أهل خراسان عامل الخليفة عليهم سَلَم بن زياد بن أبيه[1]، وأحبّوه حتى سمّوا باسمه في تلك السنة

---

(١) سَلْم بن زياد بن أبيه، أبو حرب: كانت إقامته بالبصرة. ولاّه يزيد بن معاوية خراسان سنة إحدى وستين، فذهب إليها، غزا=

أكثر من ألف غلامٍ مولود، ثم نكثوا واختلفوا، فخرج عنهم سلم، وتركٍ عليهم المهلب بن أبي صفرة، حتى جاءهم عبد الله بن خازم.

٦ ـ مصر:

كان على مصر سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي والياً على مصر من قبل يزيد بن معاوية، فلما مات يزيد، وبويع عبد الله بن الزبير، بعث ابن الزبير إلى مصر فبايعوه فأرسل إليهم والياً من قبله هو عبد الرحمن بن جحدر، فدخلها، واعتزل الوالي السابق سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي، ولكن لم يلبث أن سار مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد بن العاص إلى مصر

= سمرقند. كان جواداً أحبه الناس، ومدحه الشعراء، فلما مات يزيد بن معاوية، وابنه معاوية بن يزيد دعا سَلْم أعيان خراسان إليه، وعرض عليهم أن يبايعوه على الرضا، إلى أن يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه سنة أربعٍ وستين، ثم نكثوا بعد شهرين، فاستخلف عليهم المهلب بنَ أبي صفرة، ورحل إلى سرخس، ومنها إلى سابور، واجتمع بعبد الله بن خازم فأرسله إلى خراسان، وعزل المهلب.

قامت فتنة في خراسان على عبد الله بن خازم، وهو بعيد عنها.

توفي سَلْم سنة ثلاثٍ وسبعين.

فخرج إليهما واليها من قبل ابن الزبير وهو عبد الرحمن بن جحدر، فشاغله مروان، وخلص عمرو بن سعيد بقسمٍ من الجيش من وراء عبد الرحمن إلى مصر.

أقام مروان بن الحكم شهراً بمصر، ثم ترك ابنه عبد العزيز ابن مروان[1] والياً عليها وأبقى معه أخاه بشر بن مروان[2]،

---

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أبو الأَصْبَغ المدني: عقد له أبوه بولاية العهد بعد أخيه عبد الملك، استقلّ بملك مصر عشرين سنة وزيادة.
روى عن أبيه، وأبي هريرة، وعقبة بن عامر، وابن الزبير. وروى عنه ابنه عمر بن عبد العزيز، والزهري، وعلي بن رباح، وابن أبي مليكة، وبحير بن ذاخر.
وثّقه ابن سعد والنسائي، وله في سنن أبي داود حديث.
توفي سنة خمسٍ وثمانين بحلوان. ومات قبله بستة عشر يوماً ابنه أَصْبَع، فحزن عليه كثيراً، وعاش أخوه عبد الملك بعده، ولما جاءه نعيه عقد بولاية العهد لابنيه الوليد ثم سليمان. كان عبد العزيز جواداً شجاعاً

(٢) بشر بن مروان بن الحكم الأموي: أحد الأجواد، ولي العراقين لأخيه عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير. قيل: إنه كتب لأخيه: إنك شغلت إحدى يديّ بالعراق، وبقيت الأخرى فارغة. فكتب إليه بولاية الحرمين واليمن، فما جاءه الكتاب إلا وقد وقعت القرحة في يمينه. فقيل: اقطعها من المفصل، فجزع، فبلغت المرفق، ثم أصبح وقد بلغت الكتف، ومات، =

= وذلك سنة خمسٍ وسبعين، وله نيف وأربعون سنةً.
وجزع عليه أخوه عبد الملك، وأمر الشعراء فرثوه. ومما قاله الفرزدق:

أعينيّ إلّا تُسعداني أَلُمْكُما
فما بعد بشرٍ من عزاءٍ ولا صبر
وقلّ جَدَاءً عبرةٌ تسفحانها
على أنها تشفي الحرارة في الصدر
ولو أن قوماً قاتلوا الموت قبلنا
بشيءٍ لقاتلنا المنيّة عن بشر
ولكن فجعنا والرزيئة مثله
بأبيض ميمون النقيبة والأمر
على ملكٍ كاد النجوم لفقده
يقعن، وزال الراسيات من الصخر
ألم تر أن الأرض هُدّت جبالها
وأن نجوم الليل بعدك لا تسري
وما من أحدٍ ذو فاقةٍ كان مثلنا
إليه، ولكن لا بقيّة للدهر
فإن لا تكن هند بكته، فقد بكت
عليه الثريا في كواكبها الزهر
أغرّ، أبو العاصي أبوه، كأنّما
تفرّجت الأثواب عن قمرٍ بدر
نمته الروابي من قريشٍ، ولم تكن
له ذات قربى في كليبٍ ولا صهر =

وموسى بن نصير[1] وزيراً له، ورجع هو إلى الشام.

= سيأتي أمير المؤمنين نعيُّه
ويَنمي إلى عبد العزيز إلى مصر
بأن أبا مروان بشراً أخاكما
ثوى غير متبوعٍ بعجزٍ ولا غدر
وقد كان حيّات العراق يخفنه
وحيّات ما بين اليمامة والقهر
وكانت يدا بشرٍ يد تمطر الندى
وأخرى تُقيم الدين قسراً على قسر
وكنا ببشرٍ قد أمنّا عدوّنا
من الخوف، واستغنى الفقير عن الفقر

(١) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، أبو عبد الرحمن: ولد سنة ثماني عشرة يوم فتح معاوية مدينة قيسارية، وكان على حرسه.
نشأ موسى في دمشق، وخدم بني مروان، ونبه شأنه، غزا إفريقية في ولاية عبد العزيز بن مروان، ولاّه الوليد بن عبد الملك إفريقية سنة ثمان وثمانين، فأقام بالقيروان، ووجّه ابنيه عبد الله ومروان فأخضعا له من بأطراف البلاد من البربر، واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة، وكان قد فتحها، وأسلم أهلها، وأمره بغزو شواطئ الأندلس، فتوغّل في الأندلس، فجاءه كتاب من موسى يأمره بالتوقّف في مكانه حتى يلحق به. ولحقه موسى بثمانية عشر ألفاً سنة ثلاث وتسعين، فأتما فتح الأندلس كلها، ووصلا إلى حدود بلاد الفرنجة (جبال البيرنة) وكانت خطة موسى استمرار الاندفاع في أوربا، والعودة إلى الشام من جهة الشمال، وبلغ الخليفة ذلك فخاف =

وسار عبد العزيز بن مروان بمصر سيرةً حسنةً، فبنى مقياس مياه نهر النيل، وأقام قنطرةً على خليج أمير المؤمنين (الترعة التي تصل بين خليج السويس وبين النيل شمال الفسطاط)، وعني بمدينة حلوان، وحاول أن ينقل مركزه إليها. وكان كريماً، وبقي والياً على مصر إلى ما بعد مقتل عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما.

وكانت إفريقية تتبع مصر، وعهد أمرها يزيد بن معاوية إلى زهير بن قيس البلوي[1] عام

= على المسلمين فاستدعاه، وقد بلغ الخامسة والسبعين، فرجع، وقد استخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس، ووصل إلى القيروان سنة خمس وتسعين، فاستخلف ابنه عبد الله على إفريقية. ووصل إلى دمشق ودخلها سنة ستٍّ وتسعين، والوليد بن عبد الملك على فراش الموت.

استبقاه سليمان بن عبد الملك تقديراً له، وراحةً له بعد أن بلغ الثامنة والسبعين، وحج معه عام سبعةٍ وتسعين فتوفي موسى بالمدينة في تلك السنة.

كان شجاعاً، كريماً، تقياً.

(١) زهير بن قيس البلوي: أمير من القادة الشجعان الفاتحين، شهد فتح مصر، وولاّه أميرها عبد العزيز بن مروان على برقة سنة تسع وستين فكانت له مع البربر والروم وقائع، وأقام في القيروان مدة، فوجّه الروم مراكب من القسطنطينية إلى برقة، فعاد إليها وقاتلهم، فكثرت عليه جموعهم فثبت إلى أن قُتل على أبوابها وذلك سنة ستٍّ وسبعين.

ثلاثةٍ وستّين بعد استشهاد عقبة بن نافع[1] وأبي

---

(١) عقبة بن نافع القرشي الفهري: ولد في حياة النبي ﷺ، ولم يصحّ له صحبة. كان ذا شجاعةٍ، وحزمٍ، وديانةٍ. فاتح، من كبار القادة في صدر الإسلام. شهد فتحَ مصر، واختطّ بها، وهو ابن أخي العاص بن وائل السهمي لأمه، كما أنه ابن خالة عمرو بن العاص بن وائل.
وجّهه عمرو بن العاص سنة اثنتين وأربعين إلى إفريقية والياً فافتتح كثيراً من الكور، وعلا ذكره، فولاه معاوية بن أبي سفيان استقلالاً سنة خمسين، وسيّر له عشرة آلاف، فافتتح إفريقية، واختطّ القيروان سنة خمسٍ وخمسين، وكان موضع «القيروان» غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى إن الوحوش لتحمل أولادها.
عن مُفضّل بن فَضَالة قال: كان عقبة مجاب الدعوة.
عن موسى بن علي عن أبيه قال: نادى: إنا نازلون فاظعنوا، فخرجن من حجرتهن هوارب.
وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال؛ لما افتتح عقبة إفريقية، قال: يا أهل الوادي إنا حالّون إن شاء الله، فاظعنوا ـ ثلاث مراتٍ ـ فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطن بطن الوادي. ثم قال للناس: انزلوا باسم الله.
وعزل معاوية عقبة عن إفريقية سنة خمسٍ وخمسين، فعاد إلى المشرق.
فلما توفّي معاوية وفد عقبة على يزيد بن معاوية فبعثه سنة اثنتين وستين والياً على المغرب، فقصد القيروان، وخرج منها بجيشٍ كثيفٍ، ففتح حصوناً ومدناً، وصالحه أهل فزّان، فسار إلى الزّاب، وتاهرت، وتقدّم إلى المغرب الأقصى، فدخل بلاد =

المهاجر دينار[١]، وقد تراجع تحت ضغط البربر إلى برقة، ثم رجع إلى مصر. وكان ممن بايع عبد الله بن الزبير، وسار لردّ مروان بن الحكم عن مصر، ولكنه هُزم، وعفا عنه عبد العزيز بن مروان، وأرسله إلى برقة، وكُلّف عام تسعةٍ وستين بغزو إفريقية، واستشهد عام إحدى وسبعين، فسار إليها حسان بن النعمان الغساني[٢]

= السوس الأدنى، ثم عاد، فلما كان في (تهودة) من أرض الزاب تقدّمته العساكر إلى القيروان، وبقي في عددٍ قليلٍ، فأطمع ذلك الأعداء به، فأطبقوا عليه، وقتلوه، ومن معه وذلك سنة ثلاث وستين.

(١) دينار، المعروف بأبي المهاجر: فاتح، من القادة، كان مولى لبني مخزوم، ولما ولي مسلمة بن مخلد مصر وإفريقية استعمله على إفريقية بدلاً من عقبة بن نافع فدخلها سنة خمسٍ وخمسين، ونزل بالقرب من القيروان، وقاتل رئيس البربر (كسيلة) قرب تلمسان، فظفر به أبو المهاجر، فأظهر كسيلة الإسلام، فاستبقاه، واستخلصه. وكان أبو المهاجر أول أمير مسلم وطئت قدمه المغرب الأوسط.
عزلَ يزيد بن معاوية عن إفريقية أبا المهاجر، وأعاد عقبة بن نافع سنة اثنتين وستين، واستشهد عقبة وأبو المهاجر سنة ثلاث وستين في تهودة.

(٢) حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغسّاني: من أولاد ملوك غسّان، قائد مشهور في الفتوحات الإسلامية. ولي إفريقية أيام معاوية بن أبي سفيان، ثم كان عاملاً على مصر أيام عبد الملك بن مروان، واضطربت أحوال إفرقية بعد مقتل =

إذ تولّى أمر الجهاد، ثم أصبح والياً سنة أربع وسبعين حيث أصبحت ولايةً خاصةً، ولم تعُد ترتبط بمصر.

ووقع وباء في مصر فهرب عبد العزيز بن مروان من الفسطاط ونزل حلوان، واتخذها منزلاً، واشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار، وبنى بها داراً للإمارة، وجامعاً، وأنزلها الجند.

سار زهير بن قيس البلوي إلى برقة بأمرٍ من عبد العزيز بن مروان، وكُلّف عام تسعةٍ وستين بغزو إفريقية، واستشهد عام واحدٍ وسبعين، فتولّى أمرها بعده حسان بن النعمان الغساني وأصبحت ولايةً خاصةً سنة أربع وسبعين.

= زهير بن قيس البلوي سنة إحدى وسبعين فأمره عبد الملك بالتوجّه إليها، فزحف بأربعين ألف مقاتل فكانت له وقائع كثيرة مع الروم في قرطاجنة، ومع ملكة البربر (دهينا) الكاهنة في قابس، وجبال أوراس، فظهرت بطولته، ودانت له إفريقية كلها، فجدّد بناء مسجد القيروان سنة أربعٍ وثمانين، ودوّن الدواوين، وولّى الولاة، ثم رحل قاصداً عبدَ الملك بن مروان في دمشق، ومعه خمسة وثلاثون ألف فارسٍ. اعتزل الأعمال في أول عهد الوليد بن عبد الملك. ثم توجّه للجهاد في بلاد الروم فتوفّي هناك حوالي عام ستٍّ وثمانين.

الفصل الخامس

مقتل ابن الزبير، رضي الله عنهما.

بعد أن قُتل مصعب بن الزبير، ودخل عبد الملك بن مروان الكوفة، وأخذ البيعة من أهلها، وفرّق عمّاله، وندب الناس إلى قتال عبد الله بن الزبير بمكة، فلم يُجبه أحد إلى ذلك، فقام الحجاج بن يوسف الثقفي، وقال: يا أمير المؤمنين أنا له، وقصّ الحجاج على عبد الملك مناماً زعم أنه رآه، قال: رأيت يا أمير المؤمنين كأني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعث بي إليه فإني قاتله، فبعثه في جيشٍ كثيفٍ من أهل الشام، وكتب معه أماناً لأهل مكّة إن هم أطاعوه. فخرج الحجاج في جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين، ومعه ألفا فارسٍ من أهل الشام، فسلك طريق العراق، ولم يعرض للمدينة حتى نزل الطائف، وجعل يبعث البعوث إلى عَرَفَة، ويرسل ابن الزبير الخيل فيلتقيان، فتُهزم خيل ابن الزبير، وتظفر خيل الحجاج. ثم كتب الحجّاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم، ومحاصرة ابن

الزبير، فإنه قد كلّت شوكته، وملّت جماعته، وتفرّق عنه عامة أصحابه. وسأله أن يمدّه بالرجال أيضاً. فكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو[1] يأمره أن يلحق بمن معه بالحجّاج، وارتحل الحجاج من الطائف، فنزل بئر ميمونة، وحصر ابن الزبير بالمسجد، فلما دخل شهر ذي الحجة حجّ بالناس الحجاج في هذه السنة، وعليه وعلى أصحابه السلاح وهم وقوف بعرفات، وكذا فيما بعدها من المشاعر. وابن الزبير محصور لم يتمكّن من الحج هذه السنة، بل نحر بُدْناً يوم النحر، وهكذا لم يتمكّن كثير ممن خرج معه من الحج، وكذا لم يتمكّن كثير ممن مع الحجاج وطارق بن عمرو أن يطوفوا بالبيت، فبقوا على إحرامهم لم يحصل لهم التحلّل الثاني، والحجاج وأصحابه نزول بين الحجون وبئر ميمونة، فإنا لله وإنا إليه راجعون[2].

وكان الحجّاج أثناء حصار ابن الزبير يُراسل بعض

---

(١) طارق بن عمرو المكي، مولى عثمان بن عفان: قائد، جهّزه عبد الملك بن مروان لقتال من في المدينة من أنصار عبد الله بن الزبير، فدخلها، فولاّه إياها سنة اثنتين وسبعين، ثم عزله بالحجاج سنة ثلاث وسبعين.

(٢) البداية والنهاية.

رجال قريش، ويطلب منهم مُبايعة عبد الملك في سبيل إضعاف شأن ابن الزبير ببيعة الأعيان لخصم ابن الزبير، فينفضّ عنه الناس الذين يرون في أولئك الرجال قدوةً لهم.

أرسل الحجاج إلى محمد بن علي بن أبي طالب (محمد بن الحنفية) أن يُبايع لعبد الملك، فقال ابن الحنفية: قد عرفت مقامي بمكة، وشخوصي إلى الطائف وإلى الشام، كل هذا إباء مني أن أُبايع ابن الزبير أو عبد الملك حتى يجتمع الناس على أحدهما، وأنا رجل ليس عندي خلاف. لما رأيت الناس اختلفوا اعتزلتهم حتى يجتمعوا، فأويت إلى أعظم البلاد حرمةً، يأمن فيه الطير، فأساء ابن الزبير جواري، فتحوّلت إلى الشام، فكره عبد الملك قربي، فتحولت إلى الحرم، فإن يُقتل ابن الزبير، ويجتمع الناس على عبد الملك أُبايعك. فأبى الحجاج أن يرضى بذلك منه حتى يُبايع لعبد الملك، فأبى ذلك ابن الحنفية، وأبى الحجاج أن يقرّه على ذلك، فل يزل محمد يُدافعه حتى قُتل ابن الزبير[١].

وكذلك كان عبد الملك بن مروان قد كتب إلى

---

(١) طبقات ابن سعد.

أمير خراسان من قبل عبد الله بن الزبير، وهو عبد الله بن خازم يدعوه إلى بيعته، ويقطعه خراسان سبع سنين، فلما وصل إليه الكتاب قال للرسول: بعثك أبو الزبان؟ والله لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتك، ولكن كُل كتابه ـ فأكله ـ وبعث عبد الملك إلى بكير بن وشاح نائب ابن خازم على مرو، يعده بإمرة خراسان إن هو خلع عبد الله بن خازم، فخلعه، فجاء ابن خازم فقاتله فقُتل عبد الله بن خازم أمير خراسان في المعركة، وتبع المشرق كله لعبد الملك. وكان الذي قتل عبد الله بن خازم رجل يُدعى وكيع بن عميرة.

حصار ابن الزبير:

حصر ابن الزبير ليلة هلال ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين وقتل لسبع عشرة ليلةً خلت من جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين، فكان حصر الحجاج له خمسة أشهرٍ وسبع عشرة ليلةً. وحجّ بالناس في هذه السنة الحجاج بن يوسف، وكان في الحج عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقد كتب عبد الملك إلى الحجاج أن يأتمّ بابن عمر في المناسك.

وبعد انقضاء موسم الحج شدّد أهل الشام الحصار على أهل مكة، ونصب الحجاج المنجنيق على مكّة،

ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك. وكان مع الحجاج الحبشة فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقاً كثيراً، وكان مع الحجاج خمسة مجانيق فألحّ عليها بالرمي من كل مكانٍ. وحبس عن أهل مكة الميرة والماء، فكانوا يشربون من ماء زمزم، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة، والحجاج يصيح بأصحابه: يا أهل الشام، الله الله في الطاعة، فكانوا يحملون على ابن الزبير حتى يقال إنهم آخذوه في هذه الشدّة، فيشدّ عليهم ابن الزبير وليس معه أحد حتى يخرجهم من باب بني شيبة، ثم يكرّون عليه فيشدّ عليهم، فعل ذلك مراراً، وقتل يومئذٍ جماعة منهم، وهو يقول: هذا وأنا ابن الحواريّ. وقيل لابن الزبير: ألا تكلمهم في الصلح، فقال: والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً، والله لا أسألهم صلحاً أبداً.

وذكر أنهم لما رموا بالمنجيق جاءت الصواعق والبروق والرعود حتى جعلت أصواتها تعلو على صوت المنجنيق، ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثني عشر رجلًا، فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة، فلم يزل الحجاج يُشجّعهم، ويقول: إنني خبير بهذه البلاد، هذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها، وإن القوم يُصيبهم

مثل الذي يُصيبكم، وجاءت صاعقة من الغد فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعةً كثيرةً أيضاً، فجعل الحجاج يقول: ألم أقل لكم إنهم يُصابون مثلكم، وأنتم على الطاعة وهم على المُخالفة، ونزلت صاعقة على المنجنيق فأحرقته فتوقّف أهل الشام عن الرمي والمحاصرة، فخطبهم الحجاج فقال: ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا فتأكل قربانهم إذا تُقبّل منهم؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته، فعادوا إلى المحاصرة.

وما زال أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بالأمان، ويتركون ابن الزبير، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف، فأمّنهم، وقلّ أصحاب ابن الزبير جداً، حتى خرج إلى الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير، فأخذا لنفسيهما أماناً من الحجاج فأمّنهما، ودخل عبد الله بن الزبير إلى أمه فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، فقال: «أماه خذلني الناس حتى أهلي وولدي وأنه لم يبق معي إلا اليسير من جندي، ولم يبق لهم صبر ساعةٍ، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حقٍّ، وإليه تدعو، فاصبر عليه، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من

رقبتك غلمان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حقٍّ فما وهن الدين. إن قلت: كنت على حقٍّ، فلما وهن أصحابي ضعفت، فليس هذا فعل الأحرار وأهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فدنا منها فقبّل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، ولكن أحببت رأيك. ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحلّ حرمته، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرةً مع بصيرتي، فانظري يا أُمّاه فإني مقتول في يومي هذا، فلا يشتدّ حزنك، وسلّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمّد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشةٍ قط، ولم يَجُر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمّد ظلم مُسلمٍ ولا مُعاهدٍ، ولم يبلغني ظلم من عاملٍ فرضيته بل أنكرّته، ولم يكن عندي آثر من رضى ربي عزّ وجلّ، اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزيةً لأمي لتسلو عني».

فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً، إن تقدّمتني، وإن تقدّمتك ففي نفسي، اخرج

يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك. فقال: جزاك الله يا أمه خيراً، فلا تدعي الدعاء لي قبلُ وبعدُ. فقالت: لا أدعه أبداً لمن قُتل على باطلٍ، فلقد قُتلت على حقٍّ، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام، وذلك النحيب، والظمأ في هواجر المدينة ومكّة، وبرّه بأبيه وبي، اللهمّ إني قد سلّمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين. ثم أخذته إليها فاحتضنته لتُودّعه، واعتنقها ليُودّعها، وكانت قد أضرّت (عميت) في آخر عمرها ـ فوجدته لابساً درعاً من حديدٍ، فقالت: يا بني، ما هذا لباس من يُريد ما تُريد من الشهادة، فقال: يا أماه إنما لبسته لأُطيّب خاطرك، وأُسكّن قلبك به، فقالت: لا، يا بنيّ ولكن انزعه، فنزعه، وجعل يلبس بقية ثيابه، ويتشدّد، وهي تقول: شمّر ثيابك، وجعل يتحفّظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قُتل، وجعلت تُذكّره بأبيه الزبير، وجدّه أبي بكر الصديق، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ وتُرجّيه القدوم عليهم إذا هو قُتل شهيداً. ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها، رضي الله عنهما وعن أبيه وأبيها.

قالوا: وكان يخرج من باب المسجد الحرام،

وهناك خمسمائة فارسٍ وراجلٍ فيحمل عليهم فيتفرّقون يميناً وشمالاً، ولا يثبتَ له أحد، وهو يقول:

إنــي إذا أعــرف يــومــي أصــبــرْ
إذ بــعــضــهــم يــعــرف ثــم يُــنــكــرْ

وكانت أبواب الحرم قد قلّ من يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان لأهل حمص حصار الباب الذي يُواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جُمَح، لأهل قِنّسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائد ومعه أهل تلك البلاد، وكان الحجاج وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح، وكان ابن الزبير لا يخرج على أهل بابٍ إلا فرّقهم وبدّد شملهم، وهو دون درعٍ حتى يُخرجهم إلى الأبطح، ثم يصيح: لو كان قِرنيَ واحداً كفيته، فيقول ابن صفوان وأهل الشام أيضاً: إي والله وألف رجل، ولقد كان حجر المنجنيق يقع على طرف ثوبه فلا ينزعج بذلك، ثم يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسد ضارٍ، حتى جعل الناس يتعجّبون من إقدامه وشجاعته.

فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من سنة ثلاثٍ وسبعين بات ابن الزبير يُصلّي طول ليلته، ثم جلس فاحتبى بحميلة سيفه فأغفى ثم انتبه مع

الفجر على عادته، ثم قال: أذِّن يا سعد، فأذّن عند المقام، وتوضّأ ابن الزبير ثم صلّى ركعتي الفجر، ثم أُقيمت الصلاة فصلّى الفجر، ثم قرأ سورة (ن والقلم) حرفاً حرفاً، ثم سلّم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم، فكشفوا وجوههم وعليهم المغافر، فحرّضهم وحثّهم على القتال والصبر، ثم نهض، ثم حمل وحملوا حتى كشفوا خصومهم إلى الحجون، فجاءته آجرة فأصابته في وجهه فارتعش لها، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه تمثّل:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم سقط على الأرض فأسرعوا إليه فقتلوه، رضي الله عنه، وجاؤوا إلى الحجاج فأخبروه، فخرّ ساجداً ـ قبّحه الله. ثم قام هو وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه وهو صريع، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا، فقال الحجاج: تمدح من يُخالف طاعة أمير المؤمنين؟ قال: نعم، هو أعذر لنا، لأنا محاصروه، وليس هو في حصنٍ، ولا خندقٍ، ولا منعةٍ ينتصف منا، بل يفضل علينا في كل موقفٍ، فلما بلغ ذلك عبد الملك صَوّب طارقاً.

وروى ابن عساكر في ترجمة الحجاج أنه لما قتل ابن الزبير ارتجّت مكة بُكاءً على عبد الله بن الزبير رحمه الله، فخطب الحجاج الناس، فقال: إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازعها أهلها، وألحد في الحرم فأذاقه الله من عذابه الأليم، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة، وهي أشرف من مكّة، فلما خالف أمر الله، وأكل من الشجرة التي نهي عنها، أخرجه الله من الجنّة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله. وقيل إنه قال: يا أهل مكة إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا، ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة الله، وألحد في حرم الله، ولو كانت مكّة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنّة، وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيءٍ، فلما عصاه أخرجه من الجنّة وأهبطه إلى الأرض، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، وإن ابن الزبير غيّر كتاب الله. فقال عبد الله بن عمر: لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت، والله إن ابن الزبير لم يُغيّر كتاب الله، بل كان قوّاماً به صوّاماً عاملاً بالحق.

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك بما وقع، وبعث برأس ابن الزبير مع رأس عبد الله بن صفوان، وعمارة بن حزم إلى عبد الملك، ثم أمرهم إذا مرّوا بالمدينة أن ينصبوا الرؤوس بها، ثم يسيروا بها إلى الشام، ففعلوا ما أمرهم به، وأرسل بالرؤوس مع رجلٍ من الأزد فأعطاه عبد الملك خمسمائة دينارٍ، ثم دعا بمقراضٍ فأخذ من ناصيته ونواصي أولاده فرحاً. بمقتل ابن الزبير، عليهم من الله ما يستحقّون.

ثم أمر الحجاج بجثّة ابن الزبير فصُلبت على ثنية كدا عند الحَجون، يُقال: مُنكّسة، فما زالت مصلوبةً حتى مرّ به عبد الله بن عمر، فقال: رحمة عليك يا أبا خبيب، أما والله لقد كنت صوّاماً قوّاماً، ثم قال: أما آن لهذا الفارس أن ينزل؟ فبعث الحجاج فأُنزل عن الجذع، ودُفن هناك. ودخل الحجاج إلى مكة فأخذ البيعة من أهلها إلى عبد الملك بن مروان، ولم يزل الحجّاج مقيماً بمكة حتى أقام للناس الحج عامه هذا أيضاً، وهو على مكة، واليمامة، واليمن[1].

وإن أسماء بنت أبي بكرٍ الصديق، رضي الله

---

(١) البداية والنهاية.

عنهما، أم عبد الله بن الزبير جاءت حتى وقفت عليه - وهو مصلوب، فدعت له طويلاً، ولا يقطر من عينها دمعة، ثم انصرفت، وكذا وقف عليه ابن عمر، فدعا له، وأثنى عليه ثناءً كثيراً جداً.

وقال الواقدي: حدّثني نافع بن ثابت عن عبد الله مولى أسماء، قال: لما قُتل عبد الله بن الزبير خرجت إليه أُمّه حتى وقفت عليه، وهي على دابةٍ، فأقبل الحجاج في أصحابه فسأل عنها فأُخبر بها، فأقبل حتى وقف عليها، فقال: كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟ فقالت: ربما أُديل (غلب) الباطل على الحق وأهله وإنك بين فرثها والجنة. فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [1]، وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم، قالت: كذبت، كان أول مولودٍ وُلد في الإسلام بالمدينة، وسُرّ به رسول الله ﷺ وحنّكه بيده، وكبّر المسلمون يومئذٍ حتى ارتجت المدينة فرحاً به، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذٍ بمولده خير منك ومن أصحابك. ومع ذلك كان برّاً بالوالدين صوّاماً قوّاماً

(١) سورة الحج: الآية ٢٥.

بكتاب الله، مُعظّماً لحرم الله، يبغض من يعصي الله عزّ وجلّ، أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته يقول: (يخرج من ثقيفٍ كذّاب ومُبير)، وفي رواية: (سيخرج من ثقيف كذابان: الآخر منهما شرّ من الأول وهو مُبير». فانكسر الحجاج وانصرف. فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه يلومه في مُخاطبته أسماء، وقال: مالك ولابنة الرجل الصالح؟[1].

وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدّثنا عقبة بن مكرم حدّثنا يعقوب بن إسحاق الحضرمي، أنبأنا الأسود بن شيبان عن أبي نوفل قال: رأيت عبد الله بن الزبير على ثنية الحَجون مصلوباً، فجعلت قريش تمرّ عليه والناس، حتى مرّ عليه عبد الله بن عمر، فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ـ ما علمت ـ صوّاماً قوّاماً وصولاً للرحم، أما والله لأُمّة أنت أشرّها لأُمّة خيرٍ، ثم نفذ عبد الله بن عمر. فبلغ الحجاج وقوف ابن عمر عليه، وقوله ما قال،

---

(١) البداية والنهاية.

فأرسل إليه فأُنزل عن جذعه، فأُلقي في قبور الحجون، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكرٍ. فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول لتأتيني أو لأبعثنّ إليك من يسحبك من قرونك، فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إليّ من يسحبني من قروني. قال: فقال: أروني سِبْتَيَّ. فأخذ نعليه، ثم انطلق يتوذّف حتى دخل عليها، فقال: كيف رأيتيني صنعت بعدوّ الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسدت عليك آخرتك. بلغني أنك تقول له: يا ابن ذات النطاقين! أنا والله ذات النطاقين. أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكرٍ، أما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه. أما إن رسول الله ﷺ حدّثنا: «إن في ثقيف كذّاباً ومبيراً»، أما الكذّاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إيّاه. قال: فقام عنها ولم يُراجعها[1].

وروى الواقدي أن الحجاج لما صلب ابن الزبير على ثنية الحجون بعثت أسماء تدعوه عليه، وطلبت منه أن يدُفن فأبى عليها، حتى كتب إلى عبد الملك في

---

(١) انفرد به مسلم. ورواه في كتاب الفضائل والمناقب. باب فضيلة أسماء بنت أبي بكر.

ذلك، فكتب إليه أن يُدفن، فدُفن بالحجون، وذكروا أنّه كان يشتم من عند قبره ريح المسك.

وكان الحجاج قد قدم من الشام في ألفي فارسٍ، وانضمّ إليه طارق بن عمرو في خمسة آلاف.

وروى محمد بن سعد وغيره بسنده، أن الحجاج حاصر ابن الزبير، وأنه اجتمع معه أربعون ألفاً، وأنه نصب المنجنيق على أبي قبيس ليرمي به المسجد الحرام، وأنه أمّن من خرج إليه من أهل مكة، ونادى فيهم بذلك، وقال: إنا لم نأت لقتال أحدٍ سوى ابن الزبير، وأنه خيّر ابن الزبير بين ثلاثٍ: إما أن يذهب في الأرض حيث شاء، أو يبعثه إلى الشام مُقيّداً بالحديد، أو يُقاتل حتى يُقتل، فشاور أمه فأشارت إليه بالثالث فقط. ويروى أنها استدعت بكفن له وبخّرته، وشجّعته على القتل، فخرج بهذه النية فقاتل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين قتالاً شديداً، فجاءته آجرة ففلقت رأسه فسقط على وجهه إلى الأرض، ثم أراد أن ينهض فلم يقدر، فاتكأ على مرفقه الأيسر، وجعل يحدم بالسيف من جاءه، فأقبل إليه رجل من أهل الشام فضربه فقطع رجله، ثم تكاثروا عليه حتى قتلوه، واحتزّوا رأسه،

وكان مقتله قريباً من الحَجون. ويُقال: بل قتل وهو مُتعلّق بأستار الكعبة، فالله أعلم. ثم صلبه الحجاج مُنكّساً على ثنية كدا عند الحَجون. ودُفن بالحَجون بالمكان الذي صُلب فيه، فالله أعلم.

وكانت بيعته في السابع من رجب سنة أربعٍ وستين، وبذا لم تكمل خلافته تسع سنواتٍ، وقد جاوز السبعين من العمر.

أما أمه فلم تعش بعده إلا مائة يومٍ.

وروى الطبراني أن ابن الزبير دخل على أمه فقال: إن في الموت لراحة، وكانت أمه قد أتت عليها مائة سنة لم تسقط لها سنّ، ولم يفسد لها فكر، فقالت: ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك، إما أن تملك فتقرّ عيني، وإما أن تُقتل فأحتسبك، ثم خرج عنها وهو يقول:

ولست بمبتاع الحياة بسبّة
ولا مرتقٍ من خشية الموت سلما

وروى الطبراني أيضاً عن إسحاق بن أبي إسحاق، قال: أنا حاضر مقتل عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام، يوم قُتل جعلت الجيوش تدخل من أبواب

المسجد، وكلما دخل قوم من بابٍ حمل عليهم حتى يخرجهم، فبينما هو على تلك الحال إذ جاءت آجرة من شرفات المسجد، فوقعت على رأسه فصرعته، وهو يتمثّل بهذه الأبيات:

أسـمـاء أسـمـاء لا تـبـكـيـنـي
لـم يـبـق إلا حـسـبـي وديـنـي
وصـارم لانـت بـه يـمـيـنـي

وقد روى أن أُمّه قالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فقال الحجاج: ابنك المنافق، فقالت: والله ما كان مُنافقاً، وإن كان لصوّاماً قوّاماً وصولاً للرحم، فقال: انصرفي يا عجوز، فإنك قد خرفت، فقالت: والله ماخرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من ثقيفٍ كذّاب ومبير»، فأما الكذاب فقد رأيناه، فأما المبير فأنت.

وفي روايةٍ: أن الحجاج حلف ألا ينزله عن تلك الخشبة حتى تشفع فيه أمه، فبقي مدة[1]، ثم مرت تحته أمه فقالت: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟، فيقال: إن هذا الكلام قيل للحجاج إن معناه الشفاعة فيه، فأنزله[1].

---

(١) زعم بعضهم أن هذه المدة سنة، وهذا غير مقبول لأن الجثة تفسد وتتفسخ، بل لا تقبل عدة أيام. كما ذُكر أنه أُلقي في مقابر =

ومن سادات من قتل مع ابن الزبير في حصار الحجاج لمكة:

١ ـ عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحي، أبو صفوان: وكان أكبر ولد أبيه، أدرك حياة النبي ﷺ وروى عن عمر وجماعةٍ من الصحابة، وحدّث عنه خلق من التابعين، وكان سيّداً شريفاً مطاعاً، حليماً يحتمل الأذى، لو سبّه عبد أسود ما استنكف عنه، ولم يقصده أحد في شيء فردّه خائباً، ولا سمع بمفازةٍ إلا حفر بها جُبّاً أو عمل فيها بُركةً، ولا عقبةٍ إلا سهّلها. وقيل: إن المهلب بن أبي صفرة قدم على ابن الزبير من العراق، فأطال الخلوة معه، فجاء ابن صفوان فقال: من هذا الذي شغلك منذ اليوم؟ قال: هذا سيّد العرب من أهل العراق، فقال: ينبغي أن يكون المهلب. فقال المهلب لابن الزبير: من هذا الذي يسأل عني يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا سيد قريش بمكة، فقال: ينبغي أن

= اليهود، ولا يعرف أن في مكة مقابر لليهود إذ لم يعش في مكة يهود لا في جاهليةٍ ولا في إسلام، والعبارة (في مقابر الحجون) فوقع تصحيف في كلمة (الحجون) فأصبحت (اليهود). وقد ضخّم المغرضون بشاعة الحادثة، وهي بشعة جداً، وذلك لإعطاء صورة مشوهة وبشعة جداً عن الأمويين.

يكون عبد الله بن صفوان، وكان ابن صفوان كريماً جداً.

قدم معاوية حاجّاً فتلقّاه الناس، فكان ابن صفوان في جملة من تلقّاه، فجعل يُساير معاوية، وجعل أهل الشام يقولون: من هذا الذي يُساير أمير المؤمنين؟ فلما انتهى إلى مكة إذا الجبل أبيض من الغنم، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه غنم أجزتكها، فإذا هي ألفا شاةٍ، فقال أهل الشام: ما رأينا أكرم من ابن عم أمير المؤمنين.

كان ابن صفوان من جملة من صبر مع ابن الزبير حين حصره الحجاج، فقال له ابن الزبير: إني قد أقلتك بيعتي فاذهب حيث شئت، فقال: إني إنما قاتلت عن ديني، ثم صبر نفسه حتى قُتل وهو مُتعلّق بأستار الكعبة.

٢ ـ عبد الله بن مطيع بن الأسود بن حارثة القرشي العدوي المدني: ولد في حياة رسول الله ﷺ وحنَّكه، ودعا له بالبركة، وروى عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقتل قرشي بعد اليوم صبراً إلى يوم القيامة» وروى عنه ابناه: إبراهيم ومحمد، والشعبي، وعيسى بن طلحة بن عبيد الله، ومحمد بن أبي موسى.

كان عبد الله بن مطيع من كبار رجال قريش جلداً

وشجاعة. وكان أميراً على قريشٍ يوم الحرّة، ثم قتل مع ابن الزبير بمكة، وهوالذي يقول:

أنــا الــذي فــررت يــوم الــحــرّة
والــشــيــخ لا يــفــرّ إلا مــرّة
لا جــبــرت فــرّة بــكــرّة

٣ ـ عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعيّ، الغطفانيّ: صحابي جليل، شهد مؤتة مع خالد بن الوليد والأمراء قبله، وشهد الفتح، وكانت معه راية قومه يومئذ، وشهد فتح الشام. روى عن رسول الله ﷺ أحاديث، وروى عنه أبو هريرة وجماعة من التابعين[1].

وقد رثاه معمر بن أبي معمر الذهليّ فقال:

لعمرك ما أبقيت في الناس حاجةً
ولا كنت ملبوس الهدى متذبذباً
غداة دعاني مصعب فأجبته
وقلتَ له: أهلاً وسهلاً ومرحباً
أبوك حواريُّ الرسول وسيفه
فأنت بحمد الله من خيرنا أبا

---

(١) البداية والنهاية.

وذاك أخـوك الـمـهـتـدى بـضـيـائـه

بـمـكّـة يـدعـونـا دعـاءً مـثـوّبـاً

ولـم أك ذا وجـهـين: وجـه لـمـصـعـبٍ

مـريـض، ووجـه لابـن مـروان إذ صـبـا

وكـنـت امـرأً نـاصـحـتـه غـيـر مُـؤثـر

عـلـيـه ابـن مـروان ولا مـتـقـربّـا

إلـيـه بـمـا تـقـذى بـه عـيـن مـصـعـبٍ

ولـكـنـنـي نـاصـحـت فـي الله مـصـعـبـا

إلـى مـن رمـتـه الـحـادثـات بـسـهـمـهـا

فـبـالله سـهـمـاً مـاأسـدّ وأصـوبـا

فـإن يـك هـذا الـدهـر أردى بـمـصـعـبٍ

وأصـبـح عـبـد الله شـلـواً[1] مـلـحـبـا[2]

فـكـر امـرىءٍ حـاسٍ مـن الـمـوت جـرعـةً

وإن حـاد عـنـهـا جـهـده وتـهـيّـبـا

ورثاه نعيم بن مسعود الشيبانيّ فقال:

ألا إن هـذا الـديـن مـن بـعـد مـصـعـبٍ

وبـعـد أخـيـه قـد تـنـكّـر أجـمـعُ

---

(١) شلواً: عضواً بالياً.

(٢) ملحباً: انتهى أمره.

فلـلـديـن والـدنـيـا بـكـيـنـا وإنّـمـا
على الدين والدنيا ـ لك الخير ـ يُجزعُ
فـصـمّـت الآذان مـن بـعـد مـصـعـبٍ
ومـن بـعـد عـبـد الله فـالأنـف يُـجـدع
فـفـي كـل عـامٍ مـرتـيـن عـطـاؤه
وغـيـث لـنـا فـيـه مـصـيـف ومـربـع
عـلـى ابـن حـواريّ الـنـبـيّ تـحـيـة
مـن الله، إن الله يُـعـطـي ويـمـنـع

ورثاه قيس بن الهيثم السلميّ فقال:

فـقـدنـا مـصـعـبـاً وأخـاه لـمّـا
نـفـت عـنـا سـمـاؤهـمـا الـمـحـولا
وكـنـا لا يـرام لـنـا حـريـم
نـسـحـب فـي مـجـالـسـنـا الـذيـولا
ونـرمـي بـالـعـداوة مـن رمـانـا
ونـوطـئـهـم بـهـا وطـئـاً ثـقـيـلاً
فـوا لـهـفـي ولـهـف أبـي وأُمّـي
لـقـد أصـبـحـت بـعـدهـمـا ذلـيـلاً
ويـا لـهـفـاً عـلـى مـا فـات مـنّـي
ألا أصـبـحـت فـي الـقـتـلـى قـتـيـلا

ولــم أصــبــح لأهــل الــشــام نــصــبــاً
يُــذكّــرنــي ابــن مــروان الــذحــولا[1]

وقال عبد الله بن أبي سرح يرثيه:

لـقـد أدركـت كـتـائـب أهـل حـمـص
لــعــبــد الله طــرفــاً غــيــر وعــل
شــجــاع الــحــرب إن شــدّت وقــوداً
ولــلــحــاديــن خــيــر مــحــل رحــل
ومــن ذا يــكــره الأبــطــال مــنــه
إذا اعــتــنــشــوا طــريــقــاً غــيــر ســهــل
فــمــا لــلــشــامــتــيــن بــنــا أُصــيــبــوا
وقــلّــوا مــن ســهــراتــهــم بــمــثــل

وقال سويد السدوسي يرثي عبد الله ومصعباً:

ألا قُــل لــهــذا الــعــاذل الــمــتــصــعــب
تــطــاول هــذا الــلــيــل مــن بــعــد مــصــعــب
وبــعــد أخــيــه عــائــذ الــبــيــت إنــنــا
رمــيــنــا بــجــدع لــلــعــرانــيــن مــوعــب
فــصــرنــا كــشــاءٍ غــاب عــنــهــا رعــاؤهــا
مــعــطــلــة جــنــح الــظــلام لأَذؤُب

(١) الذحول: الحقد والثأر.

فإن يك هذا الدهر أخنى بنابه

وأنحى عليه بعد نابٍ بمخلب

وأصبح أهل الشام يرمون مصرنا

بنبلٍ بروها للعداوة صيّب

فإني لباكٍ ما حييت عليهما

ومُثنٍ ثناءً لست منه بمعتب

أرى الدين والدنيا جميعاً كأنما

هوت بهما بالأمس عنقاء مغرب

هما ما هما كانا لذي الدين عصمةً

فهل بعد هذا من بقاء لمطلب

فزادهما مني صلاةً ورحمةً

وحرّةً ثكلى، دائمِ بتنحُّب

فقد دخل المصرين حزن وذلّة

وذلّ لأهل المكتين ويثرب

وبدلت ممن كنت أهوى بقاءه

معاشر حيّ ذي كلاع ويحصب

وعك ولخم والسكون وفرقة

برابرة الأجناس أخلاط صقلب

يقولون هذا ابن الزبيري هالك

وقد ذهبت أبناؤه كل مذهب

الفصل السادس

مكانة ابن الزبير وصفاته

عبد الله بن الزبير ذو مكانةٍ عاليةٍ لدى المسلمين، فوالده الزبير ابن عمّة رسول الله ﷺ، وحواريّه، وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد رجالات المسلمين وأبطالهم الأشداء الشجعان. وأُمّه أسماء بنت الصديق، وكفى بذلك فخراً، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله، زوج رسول الله ﷺ، وجدّه الصديق أبو بكرٍ، رضي الله عنه، وجدّته من ناحية أبيه صفية بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله ﷺ، وخاله أسد الله وأسد رسوله الحمزة بن عبد المطلب، عمّ رسول الله ﷺ.

وسئل ابن عباس عن ابن الزبير، فقال: كان قارئاً لكتاب الله، متبعاً لسنة رسول الله ﷺ قانتاً لله، صائماً في الهواجر من مخافة الله، ابن حواريّ رسول الله ﷺ، وأُمّه بنت الصدّيق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله زوجة

رسول الله ﷺ، فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله[1].

وعبد الله بن الزبير بن العوّام من صحابة رسول الله ﷺ، وإن كان صغيراً أيّام رسول الله ﷺ حيث لم يزد عمره على العاشرة يوم وفاة رسول الله ﷺ، ولكن كان مُدركاً، ذا عقلٍ ووعيٍ، وفهمٍ وملاحظةٍ، سمع من رسول الله ﷺ وروى عنه.

مسنده نحو من ثلاثةٍ وثلاثين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على حديثٍ واحدٍ، وانفرد البخاري بستة أحاديث، ومسلم بحديثين[2].

وقد روى أيضاً عن أبيه، وجدّه لأمه الصديق، وأمه أسماء، وخالته عائشة، وعن عمر، وعثمان وغيرهم. وحدّث عنه أخوه عروة الفقيه، وابناه عامر وعبّاد، وابن أخيه محمد بن عروة، وعبيدة السلماني، وطاووس، وعطاء، وابن أبي مليكة، وعمرو بن دينار، وثابت البُناني، وأبو الزبير المكيّ، وأبو إسحاق السبيعي، ووهب بن كيسان، وسعيد بن ميناء، وحفيداه: مصعب بن ثابت بن عبد الله، ويحيى بن عباد بن

(١) البداية والنهاية.
(٢) سير أعلام النبلاء.

عبد الله، وهشام بن عروة، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير، وآخرون[1].

وعن ابن أبي مليكة، قال: ذكر ابن الزبير عند ابن عباسٍ، فقال: قارئ لكتاب الله، عفيف في الإسلام، أبوه الزبير، وأمه أسماء، وجده أبو بكر، وعمته خديجة، وخالته عائشة، وجدته صفية، والله إني لأحاسب له نفسي محاسبةً لم أحاسب بها لأبي بكر وعمر[2].

وروي أن مُعاوية كان يلقى ابن الزبير، فيقول: مرحباً بابن عمة رسول الله ﷺ، وابن حواريّ رسول الله ﷺ، ويأمر له بمائة ألف[3].

صفات ابن الزبير

كان آدم نحيفاً ليس بالطويل، بين عينيه أثر السجود[4]، شهماً فصيحاً، شديد البأس، ذا أنفةٍ، له نفس شريفة، وهمّة عالية[5]. كان عارضاه خفيفين، وما

---

(١) سير أعلام النبلاء.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الخلفاء ابن أبي الدنيا. والبداية والنهاية.

(٥) البداية والنهاية.

اتصلت لحيته حتى بلغ ستين سنةً[1] وكان خفيف اللحية ليس في وجهه من الشعر إلا قليلاً، وكانت له لحية صفراء[2]، وكانت له جمّة مفروقة طويلة[3].

وكان صوّاماً قوّاماً، بالحق قوّالاً وللرحم وصّالاً، شديداً على الفجرة، ذليلاً للأتقياء والبررة[4].

وعن عثمان بن طلحة أنه قال: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاثة: شجاعةٍ، ولا عبادةٍ، ولا بلاغةٍ.

الشجاعة:

كان عبد الله بن الزبير فارس قريشٍ في زمانه، وكان فارس الخلفاء، وكان يشتدّ بالسيف وقد ناهز السبعين كأنه فتًى في ربيع العمر.

شهد اليرموك مع أبيه وهو فتًى لم يبلغ الحلم، وشهد فتح مصر، وكان دخول حصن بابليون بإقدام والده - بإذن الله - وكان عبد الله ساعد أبيه، رضي الله عنهما، وساهم في فتح المغرب، وإذا صحّ أن نقول: إن

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر.
(٢) البداية والنهاية.
(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر.
(٤) المصدر السابق نفسه.

عبد الله بن الزبير كان البطل الأول هناك. وحضر حصار القسطنطينية، وقد أبلى البلاء الحسن يومذاك، وكان رجل الملمات في كل زحفٍ شهدها. وكان يوم الجمل مع خالته عائشة.

ولما حاصره الحجاج، والإمكانات غير متكافئة، كان يحمل على المقاتلين حتى يردّهم إلى أبواب المسجد، وهو يقول: لو كان قِرني واحداً كفيته. وكان يُرمى بالمنجنيق فلا يرتعد صوته ولا يلتفت.

كانت جيوش الحجاج تدخل عليه من أبواب المسجد، فكلما دخل عليه قوم من باب حمل عليهم وحده حتى يخرجهم، فبينما هو على هذه الحال إذ جاءته آجرة من شرفات المسجد فصرعته.

وشدّ عليه مرّة أصحاب الحجاج فقال لأصحابه: كسّروا أغماد سيوفكم، ولا تميلوا عني، ثم حمل على خصومه، وحمل أصحابه معه، وكان يضرب بسيفين، فلحق رجلاً فضربه فقطع يده، وانهزموا، فجعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد، فجعل رجل أسود يسبّه فقال له: اصبر يا ابن حام، ثم حمل عليه فصرعه.

ودخل عليه أهل حمص من باب شيبة، فقال: من

هؤلاء؟ فقالوا: أهل حمص، فشدّ عليهم، وجعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد، ثم انصرف، وهو يقول:

لو كان قِرني واحداً كفيته
أوردته الموت وذكّيته

ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر، فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: أهل الأردن، فجعل يضربهم من المسجد حتى أخرجهم، ثم انصرف، وهو يقول:

لا عهد لي بغارةٍ مثل السيل
لا ينجلي قَتامها حتى الليل

فأقبل عليه حجر من ناحية الصفا فأصابه بين عينيه، فنكس رأسه، وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا
ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ولما اشتدّت عليه وطأة القتال بينه وبين جند الحجاج، وخذله كثير ممن معه، وطلب بعضهم الأمان، ومنهم ولداه: خبيب، وحمزة، أتاه رجل من قريشٍ فقال: ألا يفتح لك باب الكعبة فتدخلها؟ فقال ابن الزبير: إن حرمة المسجد كحرمة البيت، والله لو

وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم، ثم قال:

ولست بمبتاع الحياة بسبّةٍ
ولا مُرتقٍ من خشية الموت سُلّما

ويقال: إن الحجاج ورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان قبل قتل ابن الزبير يقول له فيه: أعط ابن الزبير الأمان، وحكّمه في الولاية، واستنزله عن الخلافة، فقال ابن الزبير: لا خلعها إلا الموت.

الموت أكرم من إعطاء منقصةٍ
إن لم نمت عبطةً فالغاية الهرم
اصبر فكل فتىً لا بدّ مخترم
والموت أسهل مما أمّلت جُشم

لقد كان ابن الزبير شديد البأس ذا أنفةٍ، له نفس شريفة وهمّة عالية[1]. وكان شهماً ذكراً شرساً في القتال[2].

وكأن ابن الزبير ورث القوة والشجاعة، فأبوه الزبير كان من أشجع الفرسان وأعظم الأبطال، كان يوم أُحُدِ

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) الاستيعاب.

هو والمقداد بن عمرو فارسي الإسلام، وقد انبريا لخيّالة المشركين وهم يومذاك أربعون فارساً بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل فارسي قريشٍ، فولّى المشركون الأدبار وفرّ خالد وفرّ عكرمة. واخترق الزبير صفوف الروم مرتين يوم اليرموك يعمل فيهم حصداً بسيفه يدخل من أولهم ويخرج من مؤخرتهم.

وجدته صفية بنت عبد المطلب نزلت من حصن فارع الذي كانت فيه مع نساء المسلمين يوم الخندق فضربت اليهودي الذي كان يُطيف بالحصن وضربته بعمود فقتلته.

وجدّه الصديق الذي كان كالطود الشامخ في القتال يقف بالمكان فيحميه لا يتزحزح عنه، ويقف على الثغر فيسدّه فلا يمكن اختراقه، وكان يُدافع عن رسول الله ﷺ فهو دائماً بجانبه، فلا يمكن للعدوّ أن ينال من رسول الله ﷺ. لذا لم يشتهر بالنزال والطعان لأن مهمته كانت الحماية والدفاع. هذا مع ما عُرف عن الصدّيق من رقةٍ في القلب، وعطفٍ في النفس، وحنوٍّ على الأمة.

وأُم ابن الزبير أسماء بنت الصديق، الفدائية يوم الهجرة، وصاحبة النفس الأبيّة، والهمّة العالية، والتي تركت العاطفة النسائية وحضّته على القتال، وهي تعرف

مصيره وقد تخلّى عنه أصحابه، وتخلّت عن حنان الأمومة ودفعته إلى الموت، وهي تُقدّر الموقف إذ سبقه المخلصون من أتباعه، وإن أُمّاً كأسماء لجديرة أن يكون أبناؤها على هذه الشجاعة التي عليها ولدها عبد الله بن الزبير، وقد وطّنت نفسها مسبقاً على الصبر والاحتساب، وأيقنت أن لقاءها معه سيكون في الجنة ـ إن شاء الله ـ وقد ودّعها وودّعته على أمل ذلك اللقاء.

وإذا كان عبد الله بن الزبير قد هُزم في المعركة أمام الحجاج فذلك لأن القوتين غير متكافئتين، ثم إن بعض أصحابه قد رغبوا في الدنيا، فطلب بعضهم الأمان، وتخاذل بعضهم الآخر عندما تردّت الحالة المعاشية إذ نفد التموين، وجاع أهل مكة المُحاصَرون، والواقع أن عبد الله بن الزبير قد قُتل منتصراً حيث ثبت أمام الخصم، لم تُطمعه المُغريات، ولم تُغره الدنيا وزخرفها،، وبقي يهزم وحده الجموع، ويدحرهم أمامه حتى يخرجهم من المسجد، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ولم يستطع أحد أن ينال منه بل كان قتله بآجرةٍ من شظايا شرفةٍ من شرفات المسجد تناثرت من ضرب المنجنيق، وربما كان ذلك حكمةً لنأخذ درساً وعبرةً من ثباته، والحفاظ على مبدئه حيث كان على يقينٍ أنه على الحق

وإليه يسعى، وقد صبر في جهاده، وضحّى بنفسه، ونال الأجر - إن شياء الله، رضي الله عنه، وعن أبيه الزبير، وجدّته صفيّة، وأمه أسماء، وجدّه أبي بكر الصدّيق.

العبادة:

كان عبد الله بن الزبير كثير العبادة، ورعاً فيما يفعل، تقيّاً فيما يعمل، يخشى الله في كل أمرٍ من أموره، إذا دخل في عبادته انصرف عن كل شأنٍ من شؤون الدنيا حتى لا يُبالي بما يجري حوله مهما عظم، ولا يلتفت إلى ما يحدث مهما ادلهم الأمر.

● سُئل عبد الله بن عباس عن عبد الله بن الزبير، فقال: كان قارئاً لكتاب الله، مُتّبعاً لسنّة رسول الله ﷺ، قانتاً لله، صائماً في الهواجر من مخافة الله، ابن حواريّ رسول الله ﷺ، وأُمّه بنت الصدّيق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله، زوجة رسول الله ﷺ، فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله[1].

● وقالت أمّه أسماء: إن كان لصوّاماً، قوّاماً، وصولاً للرحم[2].

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر نفسه.

● وقال ابن عباس: كان عفيفاً في الإسلام، قارئاً للقرآن، صوّاماً قوّاماً[1].

● ومرّ عبد الله بن عمر على ابن الزبير بعد صلبه، فوقف عليه، وقال: رحمك الله، فإنك ما علمت إلا صوّاماً قوّاماً، وصولاً للرحم، وإني لأرجو ألا يُعذّبك الله عزّ وجلّ[2].

● وقال ابن عمر أيضاً فيه: يرحمك الله، فوالله إن كنت لصوّاماً قوّاماً[3].

● وقال ابن أبي مليكة لعمر بن عبد العزيز: إن في قلبك من ابن الزبير شيئاً، ولو رأيته لما رأيت مُناجياً قط مثله ولا مُصلّياً[4].

● وقال عمرو بن دينارٍ: كان ابن الزبير يُصلّي في الحِجر، والمنجنيق يصيب طرف ثوبه فما يلتفت إليه، وكان يُسمىّ: حمامة المسجد[5].

---

(١) البداية والنهاية.
(٢) حلية الأولياء.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر.
(٥) فوات الوفيات.

● وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مُصلّياً قطّ أحسن صلاةً من عبد الله بن الزبير. وكان إذا قام للصلاة كأنه عود من الخشوع[1].

● وقال عمرو بن دينار: رأيت ابن الزبير يُصلّي في الحِجر خافضاً بصره، فجاء حجر قُدّامه فذهب ببعض ثوبه، فما انفتل. وكانت العصافير تنزل على ظهره إذا سجد ولا تحسبه إلا جَذِم حائطٍ[2].

● وكان حين يُصلّي كأنه غصن شجرةٍ تقصفها الريح، والمنجنيق يقع ها هنا وها هنا، وهو لا يُبالي، وقالت أسماء أمه: دخلت على عبد الله بن الزبير، فإذا هو يُصلّي فسقطت حيّة من السقف على ابنه هاشم، فتطوّقت على بطنه، وهو نائم، فصاح أهل البيت: الحيّة! الحية... ولم يزالوا بها حتى قتلوها، وعبد الله بن الزبير يُصلّي، ما التفت، ولا عجّل، ثم فرغ بعدما قُتلت، فقال: ما بالكم؟ قالت أم هاشم: رحمك الله، أرأيت إن كنا هنا، أيهون عليك ابنك؟ فقال: ويحك، ما كانت التفاتة لو التفتها

---

(١) صفة الصفوة.

(٢) صفة الصفوة.

مبقية من صلاتي[1].

● وقال حماد بن زيد عن ثابت البُناني: كنت أمر بعبد الله بن الزبير، وهو يُصلّي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرّك[2].

● كان ابن الزبير يقوم ليله حتى يُصبح، ويركع ليله حتى يُصبح. ويسجد ليله حتى يصبح.

● وقال بعضهم: ركع ابن الزبير يوماً فقرأت البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة وما رفع رأسه.

● وحكى بعضهم لعمر بن عبد العزيز، أن حجراً من المنجنيق وقع على شرفة المسجد، فطارت فلقة منه فمرّت بين لحية ابن الزبير وحلقه، فما زال عن مقامه، ولا عُرف ذلك في صورته، فقال عمر بن عبد العزيز: لا إله إلا الله جاء ما وصفت[3].

● وقال عمر بن عبد العزيز يوماً لابن أبي مليكة: صف لنا عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جِلداً

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) البداية والنهاية.

(٣) البداية والنهاية.

قط رُكِّب على لحم، ولا لحماً على عصبٍ، ولا عصباً على عظم مثله، ولا رأيت نفساً رُكِّبت بين جنبين مثل نفسه، ولقد مرّت آجرة من رمي المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع، ولا قطع لها قراءته، ولا ركع دون ما يركع. وكان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيءٍ إليها، ولقد كان يركع فيكاد الرخم أن يقع على ظهره، ويسجد فكأنه ثوب مطروح[١].

● وقال عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء: كنت إذا رأيت ابن الزبير يُصلّي كأنه كعب راتب[٢].

● وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الضحاك الخزامي، وعبد الملك بن عبد العزيز، ومن لا أُحصي كثرةً منْ أصحابنا: أن ابن الزبير كان يواصل الصوم سبعاً، ويصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا يوم الجمعة الأخرى، ويصوم بالمدينة ولا يفطر إلا بمكّة، ويصوم بمكّة فلا يفطر إلا بالمدينة، وكان إذا أفطر أول ما يفطر على لبن لَقْحَة[٣]، وسمنٍ وصبرٍ، وفي روايةٍ أخرى: فأما

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) الكعب ما بين الأنبوبتين من القصب. والراتب: الثابت الذي لا يتحرك. البداية والنهاية. وحلية الأولياء.

(٣) اللّقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

اللبن فيعصمه، وأما السمن فيقطع عنه العطش، وأما الصَّبر[1] فيفتق الأمعاء.

● وقال ابن معين: عن روح عن حبيب بن الشهيد عن ابن أبي مليكة كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام، ويصبح في الثامن وهو أليثنا[2].

وفي روايةٍ أنه كان يواصل الصوم[3]، ويفطر على لبنٍ، وزعفران، وسمنٍ، ويقول: أما اللبن فيروي، وأما السمن فيُغذّي، وأما الزعفران فيطيب النكهة.

● وقال خالد بن أبي عمران: كان ابن الزبير لا يفطر من الشهر إلا ثلاثة أيّامٍ.

● وقال ليث عن مجاهد: لم يكن أحد يطيق ما يطيق ابن الزبير من العبادة، ولقد جاء سيل مرّةً فطبق البيت فجعل ابن الزبير يطوف سباحةً.

---

(١) الصبر: عصارة نبات شديدة المرارة.

(٢) أليثنا: أقوانا، ومنها: الليث: الأسد.

(٣) يواصل الصوم: يتابع صيام اليوم بعد اليوم من غير رمضان، ويجب ألا يفهم أنه لا يفطر بعد غروب اليوم. فإن مواصلة الصوم دون الفطر في الليل لا تصحّ، حيث نهى عنه رسول الله ﷺ.

● لقد تعلّم ابن الزبير الصلاة من أبي بكرٍ الصديق، وتعلم أبو بكر الصلاة من رسول الله ﷺ، لقد كان ابن الزبير ورعاً حقاً.

الفصاحة:

كان ابن الزبير رجلاً فصيحاً عالماً. وقد جعله عثمان بن عفان، رضي الله عنه، مع النفر الذين نسخوا المصاحف: مع زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وقد ذكره سعيد بن المسيب مع خطباء الإسلام.

● كان ابن الزبير صيّتاً إذا خطب تجاوبه الجبلان: أبو قبيس وزارووراء[1].

وكان ابن الزبير من خطباء قريش المشهورين[2].

● بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح ببشارة الفتح مع عبد الله بن الزبير إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقصّ على عثمان الخبر، وكيف جرى، فقال له عثمان: إن استطعت أن تُؤدّي هذا للناس فوق المنبر، قال: نعم، فصعد ابن الزبير المنبر، فخطب الناس، وذكر لهم كيفية ما حدث، قال عبد الله: فالتفت

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر.

فإذا أبي الزبير في جملة من حضر، فلما تبيّنت وجهه كاد أن يرتجّ عليّ في الكلام من هيبته في قلبي، فرمزني بعينه، وأشار إليّ ليحُضّني، فمضيت بالخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: والله لكأني أسمع خُطبة أبي بكرٍ الصدّيق حين سمعت خطبتك يا بنيّ.

● وقال الطبراني: حدّثنا زكريا الناجي، حدّثنا حوثرة بن محمد، حدّثنا أبو أسامة، حدّثنا سعيد بن المرزبان ـ أبو سعيد العبسيّ ـ حدّثنا محمد بن عبد الله الثقفيّ، قال: شهدت خطبة ابن الزبير بالموسم، خرج علينا قبل التروية بيومٍ، وهو محرم فلبّى أحسن تلبيةٍ سمعتها قطّ، ثم حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم جئتم من آفاقٍ شتّى وفوداً إلى الله عزّ وجلّ، فحقّ على الله أن يُكرم وفده، فمن كان منكم يطلب ما عند الله فإن طالب ما عند الله لا يخيب فصدّقوا قولكم بفعلٍ فإن ملاك القول الفعل، والنيّة النيّة، والقلوب القلوب، الله الله في أيّامكم هذه، فإنها أيّام تُغفر فيها الذنوب. جئتم من آفاقٍ شتّى في غير تجارةٍ، ولا طلب مالٍ، ولا دنيا ترجونها ها هنا. ثم لبّى ولبّى الناس فما رأيت باكياً أكثر من يومئذٍ[1].

---

(١) صفة الصفوة، وحلية الأولياء، والبداية والنهاية.

● وروى الحسن بن سفيان قال: حدّثنا حيان بن موسى حدّثنا عبد الله بن المبارك حدّثنا مالك بن أنس عن وهب بن كيسان، قال: كتب إليّ عبد الله بن الزبير بموعظةٍ: أما بعد، فإن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم، صدق الحديث، وأداء الأمانة، وكظم الغيظ، وصبر على البلاء، ورضى بالقضاء، وشكر للنعماء، وذلّ لحكم القرآن، وإنما الأيام كالسوق ما نفق فيها حمل إليها، إن نفق الحق عنده حمل إليه وجاءه أهله، وإن نفق الباطل حمل إليه وجاءه أهله[1].

● لما انتهى إلى عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب، قام في الناس خطيباً، فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يُؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويُعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيءٍ قدير. ألا وإنه لم يُذلّ الله من كان الحق معه، وإن كان فرداً وحده، ولن يُفلح من كان وليه الشيطان وحزبه، ولو كان معه الأنام طرّاً، ألا وإنه أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب

(١) صفة الصفوة، وحلية الأولياء، والبداية والنهاية

فأحزننا، فأما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة، وأما الذي أحزننا فإن الحميم لفراقه لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي من بعدها، وذو الرأي جميل الصبر كريم العزاء. ولئن أُصبت بمصعبٍ فقد أُصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو المصيبة، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله، وعون من أعواني. ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يُقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو بني العاص، والله ما قُتل منهم رجل في زحفٍ في الجاهلية ولا في الإسلام، وما نموت إلا في أطراف الرماح أو تحت ظل السيوف، فإن بني أبي العاص يجمعون الناس بالرغبات والرهبات، ثم يُقاتلون بهم أعداءهم ممن هم خير منهم وأكرم، ولا يُقاتلون تابعيهم زحفاً. ألا وإن الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تُقبل الدنيا لآخذها الأشر البطر، وإن تُدبر لا أبكي عليها بكاء الحزين الأسف المهين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

● ونازع ابن الزبير مروان يوماً عند معاوية، فقال ابن الزبير: يا معاوية لا تدع مروان يرمي جماهير قريشٍ

بمشاقصه[١]، ويضرب صَفاتهم[٢] بمعاوله، فلولا مكانك لكان أخفّ على رقابنا من فراشة، وأقلّ في نفوسنا من خشاشة[٣]، وإن ملك أعنّة خيلٍ تنقاد له، ليركبنّ منك طبقاً تخافه. فقال معاوية: إن يطلب هذا الأمر فقد يطمع فيه من هو دونه، وإن يتركه فإنما يتركه لمن هو فوقه، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله إليكم من لا يعطف عليكم بقرابةٍ، ولا يذكركم عند مُلمّةٍ، يسومكم خسفاً، ويُوردكم تلفاً. فقال ابن الزبير: إذن والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد[٤]، حافاتها الأسل[٥]، لها دويّ كدوي الريح تتبع غطريفاً[٦] من قريشٍ لم تكن أمه براعية ثَلّةٍ[٧]، فقال معاوية: أنا ابن هند، إن أطلقت عقال الحرب أكلت ذروة السنام، وشربت عنفوان المكرع، وليس للآكل سوى الفلذة ولا للشارب سوى الرنق.

---

(١) المشاقص: الحجارة الصغيرة الملساء.

(٢) الصفاة: الصخرة الصمّاء.

(٣) الخشاشة: الحشرة الضئيلة.

(٤) رجل الجراد: جماعة الجراد.

(٥) الأسل: الرماح.

(٦) الغطريف: الكريم، ويقصد نفسه.

(٧) الثلة: الجماعة القليلة من الغنم.

● وتكلم ابن الزبير عن قتلة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقال: خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية، فقتلهم الله كل قتلة، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب (يريد هربوا ليلاً).

ولابن الزبير موهبة شاعرية غير أنه لم يتجه نحو الشعر حيث كان منصرفاً لكتاب الله، ومتجهاً نحو العبادات الأخرى من صلاةٍ وصيامٍ، وقد نُسب له قليل من الشعر، ومنه:

وكم من عدوٍ قد أراد مساءتي
بغيبٍ، ولو لاقيته لتندّما
كثير الخنا، حتى إذا ما لقيته
أصرّ على إثمٍ وإن كان أقسما

ويروى أن عبد الله بن الزبير قد اجتمع مع مروان بن الحكم عند أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، فذكر مروان بيتاً من شعر لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه
يعود رماداً بعد إذ هو ساطع

وأظهر مروان التعجّب من هذا البيت الذي أنشده، فقال ابن الزبير:

ففوّض إلى الله الأمور إذا اعترت
فبالله - لا بالأقربين - تدافع

فقال مروان:

وداو ضمير القلب بالبر والتقى
ولا يستوي قلبان قاسٍ وخاشع

فقال ابن الزبير:

ولا يستوي عبدان: عبد مصلّم[1]
عتل لأرحام الأقارب قاطع

فقال مروان:

وعبد تجافى جنبه عن فراشه
يبيت يُناجي ربّه وهو راكع

فقال ابن الزبير:

وللخير أهل يُعرفون بهديهم
إذا جمعتهم في الخطوب المجامع

فقال مروان:

وللشرّ أهل يُعرفون بشكلهم
تُشير إليهم بالفجور الأصابع

---

(١) مصلّم: إشارة إلى الذل والمهانة.

وسكت ابن الزبير، فقالت عائشة، رضي الله عنها: ما سمعت مجادلةً قطّ أحسن من هذه، ولكن لمروان إرث في الشعر ليس لك.

لقد كان ابن الزبير من أبرز خطباء العرب ومن أبلغ بلغائهم، وكانت له لسانة وفصاحة[1].

العلم:

لقد كان عبد الله بن الزبير من العلماء المجتهدين[2]، عالماً عابداً[3]. ولا غرو في ذلك إذ كان كثير الدخول على خالته عائشة، أم المؤمنين، رضي الله عنها، وهي العالمة الفقيهة، وكانت تُحدّثه، وهو من أحبّ الناس إليها بعد رسول الله ﷺ، وبعد أبيها أبي بكر الصديق، رضي الله عنه وعنها.

كانت مدة خلافة عبد الله بن الزبير تسع سنواتٍ، وقد حجّ خلالها ثمان مراتٍ، وفي السنة الأخيرة كان مُحاصراً فلم يستطع الحج. خطب ابن الزبير مرةً الحُجّاج، فقال: يا معشر الحاج سلوني فعلينا كان التنزيل،

---

(١) الاستيعاب.

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر، والبداية والنهاية.

(٣) البداية والنهاية.

ونحن حضرنا التأويل، فقال رجل من أهل العراق: انحلّ جرابي فدخلت فيه فأرة فقتلتها، وأنا محرم، فقال: اقتلوا الفويسقة، فقال: أخبرنا بالشفع والوتر والليالي العشر، فقال: العشر: الثمان وعرفة والنحر، والشفع من تعجّل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخرّ فلا إثم عليه، والوتر: هو هذا اليوم (يعني يوم عرفة). ولم يكن أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير في عهده[1].

الكرم:

كان عبد الله بن الزبير كريماً، يُعطي حقوق الرعية كاملةً، ويزيد إلى من يستحق، ولا يدفع إلا بطرقٍ مشروعةٍ، ولكن اتهمه بعضهم بالبخل إذ لم يكن مُبذّرا يُعطي عن يمينٍ وعن شِمالٍ، من يستحق، ومن لا يستحق، ولم يكن مُسرفاً فلا يدفع إلا قدر الحاجة، ولا يُقدّم للمدّاحين والمتزلّفين، وهم عادةً أصحاب ألسنة حادّةٍ، ومنها تخرج الشائعات الهادفة، غير أن ابن الزبير لم يكن يُبالي بما يُقال، ما دام أنه على الجادة.

● قالت عائشة بنت طلحة: خرجت مع أم المؤمنين عائشة (وهي خالة عائشة بنت طلحة)، فبينما

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر.

نحن كذلك إذ براجزٍ يقول:

أنشد من كان بعيد الهمّ
يدلّني اليوم على ابن أم
له أب في باذخٍ أشمّ
وأمّه كالبدر يوم تم
مقابل الخال كريم العمّ
يجيرني من زمنٍ ملم
أكؤسه جرعتها بسمّ

فلما سمعت أم المؤمنين أبياته دعت به، فقالت له من وراء حجاب: يا عبد الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدالّ على الخير كفاعله» فحاجتك رجل بين يديك، سل عن ابن الزبير فإنه شرطك. فخرج الرجل حتى أدرك ابن الزبير، فحمله على راحلةٍ، وصنع له معروفاً.

● وسمع معاوية رجلاً يقول:

ابن رقاش ماجد سميدع
يُؤتى فيُعطي عن يدٍ أو يمنع

فقال: ذاك عبد الله بن الزبير[1].

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر.

● واقتحمت السنة نابغة بني جعدة[1] فأتى ابن الزبير وهو جالس في المسجد فأنشده:

حكيت لنا الصدّيق لمّا وَلِيتنا
وعثمان والفاروق فارتاح مُعدِمُ
وسوّيت بين الناس في الحق فاستووا
فعاد صباحاً حالكُ الليل مظلمُ
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى
دجى الليل جوّاب الفلاة غشمشمُ
لتُجبر منه جائياً غدرت به
صروف الليالي والزمان المصممُ

فأخذ بيده، وأدخله دار النَّعم، فأعطاه قلائص[2] سبعاً، وجملاً وخيلاً، وأوقر له الركاب بُرّاً، وتمراً، وثياباً، فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحَبَّ صرفاً، فقال له ابن الزبير: ويح أبي ليلى... لقد بلغ الجهد، فقال

---

(١) نابغة بني جعدة: أبو ليلى، شاعر زمانه. له صحبة ووفادة ورواية، وهو من بني عامر بن صعصعة، يقال: إنه عاش مائة وعشرين سنة، وقيل: أكثر من ذلك. كان يتنقل في البلاد.
قيل: اسمه قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة بن جعدة.
وقيل: حيان بن قيس. وكان فيه دين وخير.

(٢) القلائص: النوق الفتية.

النابغة: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما وليت قريش فعدلت، فاسترحمت فرحمت، ووعدت خيراً فأنجزت، فأنا والنبيّون فُرّاط[1] العاصفين»[2].

وكان عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، مسلماً من الرعيل الأول يُؤدّي ما عليه تجاه ربه، ويعرف أمور دنياه، كما يجب عليه، مستوحياً ذلك من كلام ربه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾. فكنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه، قلت: هذا رجل لم يرد الله طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته، قلت: هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين[3].

● أوصى عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، إن حدث به حدث في مرضه هذا أن مرجع وصيته إلى الله ثم إلى الزبير بن العوام، وابنه عبد الله بن الزبير أنهما في حِلٍّ وبِلٍّ مما وليا وقضيا، وأنه لا تزوج امرأة من بنات عبد الله إلا بإذنهما لا تُحْظَر عن ذلك زينب.

---

(١) الفراط: جمع فارط، وهو السابق المتقدم.

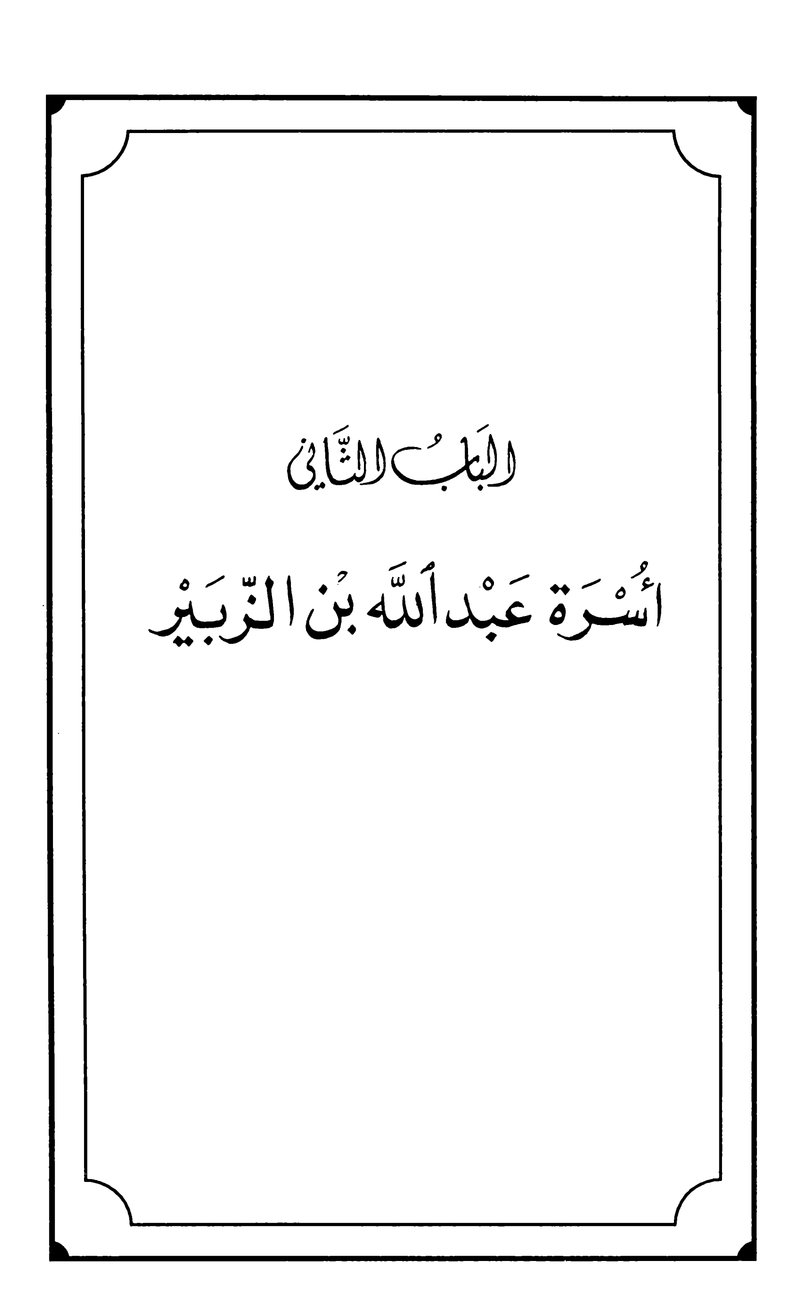
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر، والبداية والنهاية.

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر.

عن عامر بن عبد الله بن الزبير، قال: أوصى عبد الله بن مسعود إلى الزبير، وكان رسول الله ﷺ، آخى بينهما، فأوصى إليه وإلى ابنه عبد الله بن الزبير: هذا ما أوصى عبد الله بن مسعود إن حدث به حدث في مرضه إن مرجع وصيته إلى الزبير بن العوام وإلى ابنه عبد الله بن الزبير، وإنهما في حِلٍّ وبِلٍّ فيما وليا من ذلك، وقضيا من ذلك، لا حرج عليهما في شيءٍ منه، وإنه لا تزوج امرأة من بناته إلا بعلمهما، ولا يُحجر ذلك عن امرأته زينب بنت عبد الله الثقفية. وكان فيما أوصى به في رقيقه: إذا أدّى فلان خمسمائةٍ فهو حرّ[1].

---

(١) طبقات ابن سعد.



البَابُ الثَّانِي

أُسْرَة عَبْدِ اللَّه بْنِ الزُّبَيْر

الفصل الأول

والدا عبد الله

ينتمي الخليفة عبد الله بن الزبير إلى أرومةٍ طيبةٍ أباً وأُمّاً. فأبوه الزبير بن العوام، رضي الله عنه، وأُمّه أسماء بنت أبي بكرٍ الصدّيق، رضي الله عنهما.

الزبير بن العوّام:

ابن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب. وأُمّه صفيّة بنت عبد المطلب رضي الله عنها، فهو ابن عمّة رسول الله ﷺ، وعمّته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها.

قُتل العوّام في حرب الفُجّار، وكانت زوجه صفية بنت عبد المطلب حاملاً، ووضعت بعدها الزبير، فنشأ ولم يعرف له أباً، واعتنت أمّه صفية بتربيته. وهو أصغر من رسول الله ﷺ، بخمسة وعشرين عاماً. وهو حواريّ رسول الله ﷺ، وأحد المبشّرين بالجنة.

كان الزبير، رضي الله عنه، يتردّد على دار عمّته

خديجة بنت خويلدٍ، كما كان يغشى دار أبي بكر الصديق، وفي كليهما انتشر الإسلام كما أن أُمّه صفية كانت تحبّ ابن أخيها محمداً، وتُحدِّث ابنها الزبير عن صفات ابن خاله رسول الله ﷺ.

دعا أبو بكر، رضي الله عنه، الزبير للإسلام فأسلم، ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وهو من أوائل الذين أسلموا، بل يعدّ خامس من أسلم من الأحرار.

عَدَت قريش على من أسلم من رجالها ومواليها، وأذاقتهم مُرّ العذاب، وكان الزبير، رضي الله عنه، من جملة من أصابهم الأذى، إذ حاول أحد عمومته أن يثنيه عن الإسلام فعجز، فقيّده بعدئذٍ بالحبال، ولفّه في حصيرٍ، وعلّقه على حائطٍ، وأوقد تحته ناراً، واندلعت ألسنة الدخان إلى الحصير، ووصلت إلى الزبير، فاحترقت أنفه، وسالت الدموع من عينيه من شدّة الدخان، وأيقن أنه هالك لا محالة إلا أنه صبر، وتجلّد في سبيل عقيدته، وانتهى وقود النار فانطفأت، وبقي الزبير مُعلّقاً على الحائط حتى انتهى النهار، فجاء عمّه فأنزله، فوجده قد اسودّ لونه، واحمرّت عيناه من شدّة ما أصابه، وطلب منه عمّه أن يعود إلى دين قومه، وظنّ أن

الأمر قد انتهى، إلا أن الزبير قد ردّه ردّاً جميلاً، وأخبره أنه لا يمكنه أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، وهل يحبّ أحد أن يُلقى في النار و. . . . ولكن العمّ الكافر كان غليظ القلب، فلم يَلِنْ، بل عاد إلى تعذيبه ثانيةً وثالثةً، ولكن الزبير، رضي الله عنه، بقي راسخ الإيمان، ثابتاً على الإسلام، وعندها أيقن العمّ أن العذاب وسيلة غير ناجحةٍ، ولن يصل إلى غايته بهذه الطريقة لذا تركه وشأنه. فالعذاب مهما تعاظم أذلّ من أن يُبعد النفوس المؤمنة عن إيمانها إذ تستصغر هذه النفوس الدنيا الفانية، وتستعذب المصائب في سبيل عقيدتها.

وهاجر الزبير رضي الله عنه، إلى الحبشة مع من هاجر، وما أن استقرّت الحياة بالمسلمين قليلاً حتى خرج بعض الأحباش على النجاشي يُنازعونه الحكم، فحزن المسلمون لذلك أشدّ الحزن، وخافوا أن يظهر الخارجون على النجاشي فلا يعرفون للمسلمين حقاً كان يعرفه لهم النجاشي، وسار النجاشي إلى الخارجين، وكان بينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم، ثم يأتينا بالخبر؟ قال الزبير بن العوام، رضي الله عنه: أنا، وكان أحدث القوم سنّاً، قالوا: فأنت، فنفخوا له قربةً، فجعلها في صدره،

ثم سبح عليها، حتى حضرهم، ثم عاد الزبير من حيث أتى، وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوّه، ومكّن له في بلاده.

عاد الزبير، رضي الله عنه، إلى مكة مع من عاد، وبعد أن مكث في بلده عدة أشهرٍ اضطر للرجوع إلى الحبشة، ولم يستطع أن يعيش طويلاً في الحبشة فرجع إلى مكة.

تزوّج أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، وعاش الزبير قريباً من أبي بكرٍ، وملازماً لرسول الله ﷺ. وأُشيع خبر في مكة أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وما أن وصل الخبر إلى الزبير حتى هبّ من مكانه، وامتشق حسامه، وانطلق دون أن يعي على شيءٍ، حتى لم ينتبه إلى لباسه، وخرج يدور في طرقات مكة، والتقى مصادفةً برسول الله ﷺ، فاستغرب منه الرسول الحالة التي هو عليها، وقال له: مالك يا زبير؟.

أجاب الزبير: معذرةً يا رسول الله، فقد بلغني خبر ـ أحمد الله على عدم صحته ـ.

قال رسول الله ﷺ: وما هو؟

قال الزبير: سمعت أن الفاجعة الكبرى قد حلّت بنا، فإنك قد قتلت.

قال رسول الله ﷺ: وما كنت فاعلاً لو صحّ الخبر؟

قال الزبير: سأهوي بسيفي على كل كافرٍ من أهل مكة حتى لا أدع واحداً منهم، ولتجر طرقات مكة دماً.

ولهذا يقال: إن سيف الزبير أول سيف سلّ في سبيل الله. فدعا له رسول الله ﷺ بخيرٍ. وهاجر الزبير بن العوام، رضي الله عنه، إلى المدينة، ونزل هو وابن خالته أبو سبرة بن أبي رهم على منذر بن محمد بن عقبة بالعصبة، وذلك قبل هجرة رسول الله ﷺ. ثم هاجر رسول الله ﷺ، وأبو بكرٍ. وبعدها هاجرت زوجه أسماء بنت أبي بكر، وكانت حاملاً، وفي المدينة وضعت بكرها عبد الله. وآخى رسول الله ﷺ، بين الزبير وعبد الله بن مسعود.

وشهد الزبير، رضي الله عنه المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، لم يتخلّف عن مشهدٍ أبداً، ويكون الزبير في كل مشهد أحد الأبطال المعروفين.

لم يكن للمسلمين في بدرٍ سوى فارسين هما: الزبير، وتسمى فرسه «يعسوب» والمقداد بن عمرو، رضي الله عنه، وقد لفّ الزبير رأسه بعمامةٍ صفراء تُميّزه

عن بقية الصحابة، وقد قتل الزبير يوم بدر عدداً من الكفار منهم عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية المشهور بقوته، والسائب بن أبي السائب.

ويو أُحُدٍ لم يكن مع المسلمين سوى فارسين هما: الزبير بن العوّام، والمقداد بن عمرو، وقد كان عدد فوارس المشركين مائتي فارس يتقدّمهم خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهلٍ، ففرّ خالد، وفرّ عكرمة ثم تبعتهما خيل المشركين رغم التباين بالعدد ولكنه الإيمان الذي لا تقف أمامه قوة. وثبت الزبير مع من ثبت يوم أصاب المسلمين القرح.

وأبلى في قتال الأحزاب يوم الخندق، وانطلق المسلمون بعدها إلى قتال بني قريظة، ونادى عليّ بن أبي طالب: يا كتيبة الإيمان، وتقدّم هو والزبير، وما كان ليهود إلا أن ينزلوا على حُكم رسول الله ﷺ.

وفي خيبر قتل الزبير أكثر يهودها قوةً وهو ياسر، أخا «مرحب».

وبعث رسول الله ﷺ عليّاً والزبير في أثر المرأة التي حملت كتاباً إلى قريشٍ يُخبرهم أن رسول الله ﷺ سيسير إليهم لفتح مكة، فأدركاها، وأخذا منها الكتاب بعد

تهديدها عندما أنكرت وأصرّت على إنكارها.

وكان الزبير، رضي الله عنه، على رأس الميسرة في فتح مكة، وأمره الرسول أن يدخل مكة من «كُدى» أسفل مكة.

وفي حنين، وقف مالك بن عوف بقوّةٍ كبيرةٍ للمسلمين في الثنية، فتصدّى لهم الزبير، وأزاحهم عن مواقعهم. وتأخّر يوماً واحداً عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه، إذ شُغل بتجهيز رسول الله ﷺ وبايع في اليوم التالي، وكان على أنقاب المدينة هو وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن مسعود تحسُّباً من الأعراب، ومانعي الزكاة، والمرتدين. كما كان من هيئة الشورى لأبي بكرٍ، وهو الذي أشار على أبي بكرٍ بغزو الشام، وسار في عداد المجاهدين جندياً من جنود الإسلام كسائر الأفراد، وهو البطل الهمام، وأحدّ سيوف رسول الله ﷺ.

كان الزبير، رضي الله عنه، في معركة اليرموك على رأس كردوسٍ في جيش يزيد بن أبي سفيان على ميسرة قوات المسلمين، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ، فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى، فحمل وحملوا، فلما واجهوا

صفوف الروم أحجموا، وأقدم، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه، ثم جاؤوا إليه مرةً ثانيةً، ففعل كما فعل في الأولى، وجُرح يومئذٍ جرحين في كتفيه[1].

وعاد الزبير إلى المدينة برأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي كان يرغب أن يكون الصحابة بجانبه يشيرون عليه، وقد كفاهم من الجهاد ما غزوا مع رسول الله ﷺ وما هم عليه من الصحبة.

ومشى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الشام لدعم أبي عبيدة بن الجراح، وسار الزبير وابنه عبد الله مع أمير المؤمنين حتى وصلوا إلى الجابية بحوران، وبلغهم انتصار أبي عبيدة على الروم، وردّ كيدهم فتوقّفوا، وعاد عمر، رضي الله عنه، إلى المدينة، وأتمّ المسلمون فتح الشام، فبعث أمير المؤمنين إلى مصر عمرو بن العاص. وكان الزبير يريد الجهاد والسير نحو إنطاكية في شمالي الشام. فقال له عمر: يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر؟ فقال: لا حاجة لي فيها، ولكن أخرج مجاهداً وللمسلمين معاوناً، فإن وجدت عمراً قد

---

(١) البداية والنهاية.

فتحها لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل، فرابطت به، وإن وجدته في جهادٍ كنت معه، فسار على ذلك، ومشى معه ابنه، فوجدا عمراً محاصراً لبعض حصونها، وقد أبطأ الفتح، فقال: إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، وارتقى الزبير سور الحصن، ودخله عليهم عنوةً، فلما أحسّوا خرجوا على عمروٍ من الباب الذي هو عليه، فأمضوا الصلح، وكان الزبير وابنه عبد الله من الشهود على ذلك.

عاد الزبير بعد فتح مصر إلى المدينة، وطُعن عمر رضي الله عنه، فاختار ستّةً من كبار الصحابة ليكون الأمر لهم، وليكون الخليفة من بينهم، وكان الزبير من بينهم، ولكنه لم يرغب في الخلافة، وأعطى نصيبه لغيره.

وفي أواخر عهد عثمان، رضي الله عنه، استفحل أمر فتنة عبد الله بن سبأ، وجاء إلى المدينة أتباع ابن سبأ متسلّلين حتى اشتدّ ساعدهم فحاصروا الخليفة، فأرسل الصحابة أبناءهم للدفاع عن أمير المؤمنين، وكان عبد الله بن الزبير أحدهم، وكان آخر من بقي في بيت عثمان، رضي الله عنه.

وبعد مقتل عثمان حاول المنحرفون مُبايعة أحد رجال الشورى الذين بقوا إلى ذلك اليوم، غير أنهم

جميعاً قد امتنعوا، ومنهم الزبير، ثم وجدوا أنه لا مندوحة من الأمر، فبايعوا عليّاً، ولكن عليّاً، رضي الله عنه، لم يتمكّن من أمر المدينة بسبب قوّة المنحرفين، ووجود أصحاب الفتنة والرعاع، وهم الذين يتصرّفون بكثيرٍ من الأمور فضاق الأمر ببعض الصحابة، فخرج بعضهم ومنهم الزبير، وطلحة بن عبيد الله إلى مكة رغبةً بالهدوء، وبُعداً عن جوّ المدينة، خرجا بعد أن استأذنا أمير المؤمنين عليّاً، خرجا للعمرة، ولكن بقيا هناك.

كثر القادمون إلى مكة، وزاد الحديث عن الفتنة، وقريش قوم تجار، وكان لا بد من ترك مكة والتوجّه إلى مكانٍ آخر، وكان القرار الذهاب إلى البصرة والكوفة، لعلّ الهدوء هناك أكثر، إضافةً إلى وجود بعض الأملاك هناك لطلحة والزبير، فخرجا وخرجت معهما أم المؤمنين عائشة فالزبير زوج أختها أسماء، وطلحة زوج أختها أم كلثوم، فهي خالة عبد الله بن الزبير، وهو في الركب، وخرج الركب ويضمّ مايقرب من سبعمائة إنسانٍ، ولكن تبعهم على الطريق آخرون حتى زاد العدو على ثلاثة آلافٍ.

أراد أمير المؤمنين اعتراضهم ومنعهم من الخروج، غير أنهم فاتوه ووصلوا إلى البصرة، فتبعهم ووصل إلى «ذي قار» وجاءه أهل الكوفة، وأرسل إلى الركب في

البصرة القعقاع بن عمرو التميمي، وظهرت بوادر التفاهم، واتجه الخليفة نحو البصرة، وأثار السفهاء الفتنة، وأشعل نارها جماعة ابن سبأ وجرت معركة انتصر فيها الخليفة، وقُتل طلحة بن عبيد الله، وكانت مأساة.

أما الزبير فكان الخليفة قد قال له: أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ، في بني غَنْم، فنظر إليّ فضحك، وضحكتُ إليه، فقلت: لا يدعُ ابن أبي طالبٍ زهوه، فقال لك رسول الله ﷺ: «صه، إنه ليس به زهو، ولتقاتلنّه وأنت له ظالم». فقال الزبير: اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً... ثم انصرف.

ولما انصرف الزبير مرّ بوادي السباع فلحقه عمرو بن جرموز، وأظهر أنه يريد سؤاله، وحان وقت الصلاة، فقال ابن جرموز: الصلاة، فقال الزبير: الصلاة، فنزلا، وتقدّم الزبير إلى الصلاة فطعنه ابن جرموز من خلفه غدراً في جُرُبّان درعه فقتله، وأخذ فرسه، وخاتمه، وسلاحه، وخلّى عن الغلام، ودفن ابن جرموز الزبير في وادي السباع، ورجع إلى الناس بالخبر، وذلك في منتصف جمادى الأولى سنة ستّ وثلاثين. وكان عمر الزبير، رضي الله عنه، أربعاً وستين سنةً.

جاء ابن جرموز إلى أمير المؤمنين بالخبر، وبسيف الزبير، فاستأذن عليه، فقال الخليفة: لا تأذنوا له، وبشِّروه بالنار، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشّروا قاتل ابن صفية بالنار»، ودعا عليّ بالسيف الذي حمله إليه ابن جرموز، فقال: سيف طالما جلّى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ. وبعث بذلك إلى أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها.

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول: الزبير ركن من أركان الدين. ويقول عنه أيضاً: الزبير عمود من عُمد الإسلام، وذلك لما أبلاه في سبيل الله.

أراد الزبير، رضي الله عنه، مرّةً أن يغتسل، وكان بأرضٍ قفراء، فقال لصاحبه: استرني حتى اغتسل، فستره صاحبه، ولكن حانت منه التفاتة، فرأى جسد الزبير مُجدّعاً بالسيوف، وفيه أمثال العيون من الطعن، فتعجّب الرجل، وعندما انتهى الزبير من غُسله، سأله صاحبه قائلًا: لقد رأيت في جسدك ما رأيت من العجائب. فقال الزبير: أما والله ما فيها من جراحةٍ إلا مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله.

وتزوّج الزبير بن العوّام، رضي الله عنه، ستّ نساءٍ، وهنّ:

١ ـ أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وأنجبت له: عبد الله، وعروة، والمنذر، وعاصماً، والمهاجر، وخديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة.

٢ ـ أُمّ خالدٍ أَمة بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأنجبت له: خالداً، وعمراً، وحبيبة، وسودة، وهنداً.

٣ ـ الرباب بنت أُنيف بن عبيد الكلبية، وأنجبت له: مصعباً، وحمزة، ورملة.

٤ ـ زينب أم جعفر بنت مرثد بن عمرو بن عبد عمرو، وأنجبت له: عبيدة، وجعفراً.

٥ ـ أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيطٍ، وأنجبت له: زينب.

٦ ـ الحلال بنت قيس الأسدية، وأنجبت له: خديجة الصغرى.

أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما:

والدة عبد الله بن الزبير، ولدت في السنة الرابعة عشرة قبل البعثة، وأمها قتيلة بنت عبد العزّى، وأسلمت في الأيام الأولى للبعثة، وكان لها دور بالهجرة من مكة

إلى المدينة، إذ كانت تأتي بالطعام لرسول الله ﷺ ولأبيها، وبما يصلح لهما من ثيابٍ وغيرها، وذلك كل يومٍ من الأيام الثلاثة التي قضياها في غار ثورٍ، وعندما قررا المغادرة جاءت إليهما بطعام الطريق، غير أنها نسيت أن تجعل لغلاف ذلك الطعام عصاماً كي يُعلّق برحل البعير، فلما ارتحلا ذهبت لتعلّق الطعام فإذا ليس له عصام، فأخذت نطاقها فجعلت نصفه عصاماً، والنصف الآخر نطاقاً، فسُمّيت ذات النطاقين.

وعن أسماء أنها قالت: أتى أبو جهل في نفرٍ، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك؟ قلت: لا أدري ـ والله ـ أين هو؟ فرفع أبو جهلٍ يده ولطم خدي لطمةً خرّ فيها قرطي، ثم انصرفوا.

وعن أسماء أنها تزوّجت الزبير بن العوام، وهاجرت وهي حامل منه، ووضعت في قباء ولدها عبد الله بن الزبير، فكان أول مولودٍ للمهاجرين في المدينة، أو أول مولود في الإسلام أي بعد أن تأسست للإسلام دولة.

وشهدت أسماء اليرموك مع زوجها وابنها.

وكان الزبير شديداً على أهله، وقد ضرب أسماء

مرةً، فصاحت بعبد الله ابنها، فأقبل، فلما رآه، قال: أمك طالق إن دخلت. فقال: أتجعل أمي عرضة ليمينك، فاقتحم، وخلّصها، فبانت منه، فذهبت أسماء، وعاشت في مكة مع ابنها عبد الله.

ولدت أسماء للزبير: عبد الله، وعاصماً، والمنذر، والمهاجر، وعروة من البنين، ومن البنات: خديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة.

وتوفيت أسماء، رضي الله عنها، بعد مقتل ابنها عبد الله بمدةٍ وجيزةٍ.

الفصل الثاني

إخوة عبد الله، رضي الله عنه.

عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال الزبير بن العوّام: إن طلحة بن عبيد الله التيميّ يُسمّي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أن لا نبيّ بعد محمّدٍ، وإني أُسمّي بنيّ بأسماء الشهداء، لعلهم يُسْتَشْهَدُوا. فسمّى عبد الله بعبد الله بن جحش[1]، والمنذر بالمنذر بن عمرو[2]، وعروة بعروة بن

---

(١) عبد الله بن جحش: ابن عمة رسول الله ﷺ، أميمة شقيقة عبد الله والد رسول الله ﷺ، فعبد الله بن جحش ابن خالة الزبير بن العوام، أسلم عبد الله مع أوائل الذين أسلموا. هاجر إلى الحبشة وعاد منها، وهاجر إلى المدينة قبل بيعة العقبة، وقاد سرية إلى نخلة بين مكة والطائف، وغنم. وشهد بدراً، واستشهد يوم أحد، ودفن مع خاله الحمزة بن عبد المطلب في قبرٍ واحدٍ.

(٢) المنذر بن عمرو بن خنيس الأنصاري الخزرجي: أحد النقباء الاثني عشر في العقبة، شهد بدراً، وأُحُداً، واستشهد يوم بئر معونة أميراً.

مسعودٍ[1]، وحمزة بحمزة بن عبد المطلب[2]، وجعفراً بجعفر بن أبي طالبٍ،[3] ومصعباً بمصعب بن عميرٍ[4] وعبيدة بعبيدة بن الحارث[5]، وخالداً بخالد بن سعيد[6]، وعمراً بعمرو بن سعيد بن

---

(١) عروة بن مسعود الثقفي: سيد ثقيف، زوج ميمونة بنت أبي سفيان، أسلم بعد عودة رسول الله ﷺ، عن الطائف، أدرك رسول الله ﷺ، قبل وصوله إلى المدينة وأسلم، فأرسله إلى قومه لدعوتهم فقتلوه.

(٢) حمزة بن عبد المطلب: عم رسول الله ﷺ، أحد أبطال قريش المعروفين، أسلم ورسول الله ﷺ، لا يزال في دار الأرقم، واستشهد يوم أُحد. وهو خال الزبير بن العوام، وصفية بنت عبد المطلب شقيقة الحمزة.

(٣) جعفر بن أبي طالب: ابن عم رسول الله ﷺ، أسلم وهاجر إلى الحبشة، وبقي فيها حتى خيبر، واستشهد يوم مؤتة أميراً.

(٤) مصعب بن عمير: أسلم، وهاجر إلى الحبشة، ورجع منها، وبعثه رسول الله ﷺ، إلى المدينة يقرئ القرآن من أسلم، واستشهد يوم أُحد، وهو زوج حمنة بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ.

(٥) عبيدة بن الحارث بن المطلب: أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ، دار الأرقم، واستشهد يوم بدر.

(٦) خالد بن سعيد بن العاص الأموي: من أوائل الذين أسلموا، هاجر إلى الحبشة، وزوّج رسول الله ﷺ، أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان عند النجاشي، وهاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، واستشهد في مرج الصفّر أميراً.

العاص[1]، قتل يوم اليرموك.

كان لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، عشرة إخوة من الذكور، وتسع من الإناث.

الإخوة البنين:

كان إخوة عبد الله بن الزبير من أربع من النساء، وهم:

١ ـ عروة بن الزبير: أمه أسماء بنت أبي بكرٍ الصديق، رضي الله عنهما، فهو شقيق عبد الله. ولد عروة سنة ثلاثٍ وعشرين. يُكنى أبا عبد الله، عالم المدينة، أحد فقهائها السبعة. حدّث عن أبيه بشيءٍ يسيرٍ لصغره، وعن أمه أسماء، وعن خالته أم المؤمنين عائشة، ولازمها وتفقّه منها. وعن سعيد بن زيد، وعليّ بن أبي طالب، وسهل بن أبي حَثْمَة، وسفيان بن عبد الله الثقفي، وجابر، والحسن، والحسين، ومحمد بن مسلمة، وأبي حميد، وأبي هريرة، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، والمغيرة بن

---

(١) عمرو بن سعيد بن العاص الأموي: أخو خالد، واستشهد يوم اليرموك.

شعبة، وأسامة بن زيد، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله بن عمرو، وأم هانئ بنت أبي طالب، وقيس بن سعد بن عبادة، وحكيم بن حزام، وابن عمر، وخلق سواهم.

وروى عنه بنوه: يحيى، وعثمان، وهشام، ومحمد، وسليمان بن يسار، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وابن شهاب، وصفوان بن سُليم، وبكر بن سوادة، ويزيد بن أبي حبيب، وأبو الزناد، وصالح بن كيسان، وحفيده عمر بن عبد الله بن عروة، وابن أخيه محمد بن جعفر بن الزبير[١].

وفد عروة على عبد الله بن عباس، وهو أمير البصرة فأجازه، ثم لحق بمصر فأقام بها.

يروى عن الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب، قال: كنا في خلافة معاوية، وإلى آخرها نجتمع في حلقةٍ بالمسجد، بالليل، أنا، ومصعب، وعروة ابنا الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبد الملك بن مروان، وعبد الرحمن بن المسور، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وكنا نتفرق

---

(١) سير أعلام النبلاء.

بالنهار فكنت أجلس أنا وزيد بن ثابت، وهو مترئس بالمدينة في القضاء، والفتوى، والقراءة، والفرائض، في عهد عمر، وعثمان، وعلي، ثم كنت أنا وأبو بكر بن عبد الرحمن نجالس أبا هريرة، وكان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة[1].

قال أبو الزناد: فقهاء المدينة أربعة: سعيد، وعروة، وقبيصة، وعبد الملك بن مروان[2].

عن الزهري، قال: رأيت عروة بحراً لا تكدره الدلاء[3].

أقام له منزلاً بالعقيق، وابتنى بئراً لا يعدل ماءها عذوبةً.

أقام عبد الله بن الزبير تسع سنواتٍ بمكّة ومعه أخوه عروة بن الزبير.

وفد على عبد الملك بن مروان، وعلى ابنه الوليد بن عبد الملك، وقطعت رجله، وفقد ابنه فكان أكثر الناس صبراً.

---

(١) سير أعلام النبلاء.

(٢) تاريخ ابن عساكر.

(٣) المصدر السابق نفسه.

كان عروة بن الزبير ثقةً، ثبتاً، مأموناً، كثير الحديث، فقيهاً، عالماً.

توفّي، وهو صائم، سنة ثلاثٍ وتسعين.

٢ ـ المنذر بن الزبير: أبو عثمان، أحد الأبطال، ولد زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وأمه أسماء بنت أبي بكرٍ، رضي الله عنهما، فهو شقيق عبد الله، وعروة.

وكان مع يزيد بن معاوية في غزو القسطنطينية. ووفد عليه بعد.

غاضب أخاه عبد الله، فسار إلى الكوفة، ثم وفد على معاوية، فأكرمه، وأجازه بألف ألف درهمٍ، ولكن مات معاوية قبل أن يقبض المنذر الجائزة، وأوصى معاوية أن ينزل المنذر في قبره. وكان المنذر بن الزبير مع وفد المدينة الذي وفد على يزيد بن معاوية بدمشق، فأكرمهم، وأحسن إليهم، وأجاز كل واحدٍ بمائة ألف درهمٍ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة إلا المنذر فإنه قد سار إلى صاحبه عبيد الله بن زياد أمير البصرة، ومن البصرة سار إلى المدينة.

وعندما تولّى إمرة المدينة عمرو بن سعيد بن

العاص جعل على شرطته عمرو بن الزبير، فتتبع أصحاب أخيه، ومن يرى رأيه، وقد ضرب أخاه المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر، وابن أخيه خبيب بن عبد الله بن الزبير.

وسار المنذر بن الزبير إلى الكوفة، ولكن لما بلغه خلاف أخيه عبد الله على يزيد أسرع إلى أخيه بمكة في ثمان ليالٍ.

وقُتل المنذر في القتال الذي جرى بين جيش يزيد وبين عبد الله بن الزبير، إذ تبارز المنذر بن الزبير، ورجل من أهل الشام، فقتل كل واحدٍ منهما صاحبه.

واشتهرت فاطمة بنت المنذر بن الزبير حيث لها رواية عالية، وهي زوجة ابن عمها هشام بن عروة بن الزبير.

٣ ـ عاصم بن الزبير: ومات صغيراً، وأمه أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، فهو شقيق عبد الله.

٤ ـ المهاجر بن الزبير: ومات صغيراً، وأمه أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، فهو شقيق عبد الله.

٥ ـ عمرو بن الزبير: وأمه أم خالد أَمَة بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وكان مخالفاً لأخيه

عبد الله بل لأسرته، ولما تسلّم إمرة شرطة المدينة لعمرو بن سعيد بن العاص أساء لإخوته وأبنائهم إذ ضرب أخاه المنذر بن الزبير، وولده محمد بن المنذر، وابن أخيه خبيب بن عبد الله بن الزبير.

وعندما قرّر عمرو بن سعيد بن العاص غزو عبد الله بن الزبير بمكة استشار قائد شرطته عمرو بن الزبير فيمن يرسله على رأس السرية التي ستتوجّه إلى أخيه عبد الله بمكة لقتاله. فقال عمرو بن الزبير: إنك لن تبعث إليه من هو أنكى له مني، فعيّنه على تلك السرية، وجعل على مقدمته أُنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة مقاتل. وقيل: إن الذي عيّنهما هو الخليفة يزيد بن معاوية نفسه. وأشار مروان بن الحكم على عمرو بن سعيد بن العاص أن لا يغزو مكة، بل يترك عبد الله بن الزبير فيها، ويُهمله، فأخذت الحماسة عمرو بن الزبير، وقال: والله لنغزونه ولو في جوف الكعبة رغم أنف من رغم. وسارت طليعة الجيش إلى مكة بقيادة أُنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة مقاتلٍ، ولحقه عمرو بن الزبير في ألفي مُقاتلٍ حتى نزل بالأبطح، وكان يتردد على داره عند الصفا، أما أُنيس فقد نزل بذي طوًى.

كان عمرو بن الزبير هو الذي يصلي بالناس، وكان

عبد الله بن الزبير يصلي مع الجماعة وراء أخيه عمرو. وبعث عمرو إلى عبد الله يقول له: برّ يمين الخليفة، وَأْتِهِ وفي عنقك جامعة من ذهبٍ أو فضةٍ، ولا تدع الناس يضرب بعضهم بعضاً، واتق الله فإنك في بلدٍ حرام. فأرسل عبد الله يقول لأخيه: موعدك المسجد. وبعث عبد الله بن الزبير سريةً بقيادة عبد الله بن صفوان بن أمية لقتال أُنيس بن عمرو الأسلمي بذي طوى، فاقتتلوا فهُزم أُنيس، وتفرّق أصحاب عمرو بن الزبير عنه، وهرب عمرو، والتجأ إلى دار ابن علقمة، وأجاره أخوه عبيدة بن الزبير.

أخذ عبد الله بن الزبير يلوم أخاه عُبيدة لإجارته أخيهما عمرٍو، وعليه حقوق للناس، ثم إن عبد الله قد سجن عمراً في سجن عارمٍ، وضربه بكل من ضربه بالمدينة إلا المنذر بن الزبير وابنه مُحمّداً فإنهما أبيا أن يستقيدا من عمرو. ومات عمرو بن الزبير في السجن.

٦ ـ خالد بن الزبير: وأمه أُمُّ خالدٍ أَمَة بن خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، فهو شقيق عمرٍو.

٧ ـ عبيدة بن الزبير: وأمه زينب أم جعفر بنت مرثد، وهو الذي أجار أخاه عمراً.

٨ ـ جعفر بن الزبير: وهو شقيق عبيدة، أمه زينب أم جعفر بنت مرثد، وتزوج مليكة بنت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

٩ ـ حمزة بن الزبير: وأمه الرباب بنت أُنيف بن عبيد الكلبية. مات ولم يُعْقِب فورثه أخواه عروة، وجعفر ابنا الزبير. وقُتل مع أخيه.

١٠ ـ مصعب بن الزبير: وهو شقيق حمزة، أمه الرباب بنت أُنيف الكلبية. كان فارساً شجاعاً، جميلاً وسيماً. ولاّه أخوه عبد الله العراق، فبدأ بالبصرة فنزلها، ثم خرج بجيشٍ كثيرٍ إلى المختار بن أبي عبيد، وهو بالكوفة، فقاتله حتى قتله، وبعث برأسه إلى أخيه عبد الله بن الزبير، وفرّق عماله في الكور والسواد، وضبط العراقين.

كان يُكنى أبا عيسى، كما يُكنى أبا عبد الله، وليس له ولد يدعى عبد الله. وليس لمصعب رواية.

يروى أنه اجتمع في الحجر: عبد الله، ومصعب، وعروة بنو الزبير، وعبد الله بن عمر، فقال: تمنّوا، فقال عبد الله بن الزبير: أتمنّى الخلافة، وقال عروة: أتمنّى أن يُؤخذ عني العلم، وقال مصعب: أتمنّى إمرة العراق،

والجمع بين عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين. فقال ابن عمر: أما أنا فأتمنّى المغفرة. فنالوا ما تمنّوا، ولعل ابن عمر قد غُفر له[1].

روى عمر بن أبي زائدة، أن الشعبي قال: ما رأيت أميراً قط على منبرٍ أحسن من مصعب.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: ما رأيت أميراً قط أحسن من مصعب.

وكان يُسمى لسخائه آنية النحل.

وقال أبو عاصم النبيل: كان عبد الله بن الزبير إذا كتب لأحدٍ بجائزة ألف درهم جعلها مصعب مائة ألفٍ.

قال علي بن زيد بن جدعان: بلغ مصعباً شيء عن عريف الأنصار، فهمّ به، فأتاه أنس فقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «استوصوا بالأنصار خيراً، اقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم». فألقى مصعب نفسه عن السرير، وألزق خدّه بالبساط، وقال: أمر رسول الله ﷺ، على العين والرأس، وتركه[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٢٤٠ و٢٤١. وعلي بن زيد ضعيف. لكن أخرج البخاري في صحيحه ٧/ ٩١ و٩٢ من =

وقد سئل سالم: أيّ ابن الزبير أشجع؟ قال: كلاهما جاء الموت، وهو ينظر إليه.

وقيل: تذاكروا الشجعان، فقال عبد الملك بن مروان: أشجع العرب من وَلي العراقين خمس سنواتٍ فأصاب ثلاثة آلاف ألف، وتزوّج بنت الحسين، وبنت طلحة، وبنت عبد الله بن عامر، وأمه رباب بنت أُنيف الكلبي سيد ضاحية العرب، وأُعطيَ الأمان فأبى، ومشى بالسيف حتى قُتل.

ويمدح الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات مصعب بن الزبير فيقول:

إنما مصعب شهاب من اللّـ
ـه تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوةٍ ليس فيه
جبروت ولا به كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أفـ
ـلح من كان همّه الاتقاء

= حديث أنس أنه ﷺ، قال: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».

وقُتل مصعب بن الزبير في نصف جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين، وله أربعون سنةً، وكان مصعب قد سار ليأخذ الشام، فقصده عبد الملك فوقعت بينهما معركة قُتل فيها مصعب، وابنه عيسى الأكبر.

قال عبد الملك بن عمير: رأيت بقصر الكوفة رأس الحسين الشهيد، ثم رأس ابن زياد، ثم رأس المختار، ثم رأس مصعب بين يدي عبد الملك.

وكان عبد الملك ودوداً لمصعب وصديقاً قبل أن يفرّق الملك بينهما، وقد قال عبد الملك عندما أتي له برأس مصعب:

لقد أردى الفوارس يوم عبسٍ
غلام غير منّاع المتاع
ولا فرح بخيرٍ إن أتاه
ولا هلع من الحدثان لاع
ولا رقابة والخيل تعدو
ولا خال كأنبوب اليراع

فقال الرجل الذي جاء برأسه: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته والرمح في يده تارةً، والسيف تارةً يفري بهذا ويطعن بهذا، لرأيت رجلًا يملأ القلب والعين شجاعةً،

لكنه لما تفرّقت عنه رجاله، وكثر من قصده، وبقي وحده، وهو ينشد:

وإني على المكروه عند حضوره
أكذب نفسي والجفون لم تغمض
وما ذاك من ذلٍّ ولكن حفيظةً
أذبّ بها عند المكارم عن عرضي
وإني لأهل الشرّ بالشرّ مرصد
وإني لذي سلم أذلّ من الأرض

فقال عبد الملك: كان والله كما وصف به نفسه، وصدق. ولقد كان من أحبّ الناس إليّ، وأشدّهم لي ألفةً ومودةً، ولكن الملك عقيم.

وروى الخطيب البغدادي أن امرأته سكينة بنت الحسين كانت معه في الوقعة التي قُتل بها، وقد طلبته في القتلى فعرفته بشامةٍ في خده، فقالت: نعم بعل المرأة المسلمة، كنت أدرك والله ما قال عنترة:

وخليل غانية تركت مجندلاً
بالقاع لم يعهد ولم يتثلّم
فهتكت بالرمح الطويل إهابه
ليس الكريم على القنا بمحرم

وقد رثاه عبيد الله بن قيس الرقيات فقال:

لقد أورث المِصْرَيْن خِزياً وذِلّةً
قتيل بدير الجاثليق مقيم

فما نصحت لله بكر بن وائل
ولا صدقت يوم اللقاء تميم

ولو كان بكريّاً تعطّف حوله
كتائب يبقى حَرّها ويدوم

ولكنه ضاع الذمام ولم يكن
بها مضريّ يوم ذاك كريم

جزى الله كوفيّاً هناك ملامةً
وبصريّهم إن الملوم ملوم

وإن بني العلّات أخلوا ظهورنا
ونحن صريح بينهم وصميم

فإن نَفْنَ لا يبقى أولئك بعدنا
لذي حرمةٍ في المسلمين حريم

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات في رثاء مصعب أيضاً:

نعت السحائب والغمائم بأسرها
جسداً بِمَسْكِن عاري الأوصال

تمسي عوائذه السباع وداره
بمنازل أطلالهنّ بوالي

رحل الرفاق وغادروه ثاوياً
للريح بين صَبا وبين شمال

وكان لمصعب من الأبناء:

١ ـ عيسى الأكبر بن مصعب الذي قتل مع أبيه، وأمه فاطمة بنت عبد الله بن السائب.

٢ ـ عكاشة بن مصعب: وأمه فاطمة بنت عبد الله بن السائب.

٣ ـ عبد الله بن مصعب: وأمه عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم.

٤ ـ محمد بن مصعب: وأمه عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم.

٥ ـ جعفر بن مصعب: وأمه أم ولد.

٦ ـ مصعب بن مصعب: وأمه أم ولد.

٧ ـ سعيد بن مصعب: وأمه أم ولد.

٨ ـ عيسى الأصغر بن مصعب: وأمه أم ولد.

٩ ـ المنذر بن مصعب: وأمه أم ولد.

ومن البنات:

١ ـ سكينة بنت مصعب: وأمها فاطمة بنت عبد الله بن السائب.

٢ ـ الرباب بنت مصعب: وأمها سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

الإخوة البنات:

كان لعبد الله بن الزبير تسع من الإخوة البنات، وهنّ:

١ ـ خديجة الكبرى بنت الزبير: وأمها أسماء بنت أبي بكرٍ، فهي شقيقة عبد الله.

٢ ـ أم الحسن بنت الزبير: وأمها أسماء بنت أبي بكرٍ، فهي شقيقة عبد الله.

٣ ـ عائشة بنت الزبير: وأمها أسماء بنت أبي بكرٍ، فهي شقيقة عبد الله.

٤ ـ حبيبة بنت الزبير: وأمها أم خالد أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص.

٥ ـ سودة بنت الزبير: وأمها أم خالد أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص.

٦ ـ هند بنت الزبير: وأمها أم خالد أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص.

٧ ـ رملة بنت الزبير: وأمها الرباب بنت أُنيف بن عبيد الكلبية، وتزوجها خالد بن يزيد بن معاوية وأحبها كثيراً، فكان يقول:

أُحبُّ بني العوّام طرّاً لحبّها
ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

٨ ـ زينب بنت الزبير: وأمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

٩ ـ خديجة الصغرى بنت الزبير: وأمها الحلال بنت قيس بن نوفل الأسدية.

الفصل الثالث

زوجات عبد الله بن الزبير

تزوّج عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، عدداً من الزوجات، وهنّ:

١ - حنتمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: وأنجبت له عامر بن عبد الله.

٢ - ريطة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: وقد خلف عليها بعد أختها «حنتمة»، وقد قالت له، وهو محاصر: أخرج أُقاتل معك، فجعل يقول:

كتب القتل والقتال علينا
وعلى المحصنات جرّ الذيول

٣ - عائشة بنت عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وأنجبت له بكر بن عبد الله. وكانت عائشة عند الحارث بن الحكم بن أبي العاص، فلما مات تزوجها عبد الله بن الزبير.

٤ ـ نفيسة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وأنجبت له: أم الحسن بنت عبد الله.

٥ ـ أم هاشم زُجْلة بنت منظور بن زبّان الفزاريّة: وهي عند بعضهم «خولة»، وهي أُمّ أولاده: خبيب، وحمزة، وعبّاد، وثابت، وهاشم.

وقد خطبها الحجاج بن يوسف الثقفي بعد انقضاء عدتها، فأجابته:

أبعد عائذ بيت الله تخطبني
جهلاً وغِبّ الجهل مذموم

الفصل الرابع

أبناء عبد الله بن الزبير

كان لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، أربعة عشر ابناً، وبنت واحدة.

البنين:

١ ـ خبيب بن عبد الله: أكبر أبناء عبد الله بن الزبير، وبه يُكنى، كما كان يكنى أبا بكر. وكان خبيب عقيماً، وعندما اشتدّ حصار الحجاج على أبيه، خرج إليه طالباً الأمان. وخبيب أكبر من عمه عروة بن الزبير.

٢ ـ حمزة بن عبد الله: كان من أجود العرب، وتسلّم ولاية البصرة لأبيه، وطلب الأمان من الحجاج، وخرج إليه، تاركاً أبيه. ولا عقب له.

٣ ـ ثابت بن عبد الله: وتسلّم ابن حفيده، وهو الزبير بن عبد الله بن مصعب بن ثابت ولايتي المدينة واليمن لهارون الرشيد.

٤ ـ موسى بن عبد الله: له عقب.

٥ ـ عباد بن عبد الله: له عقب.

٦ ـ قيس بن عبد الله: لا عقب له.

٧ ـ عامر بن عبد الله: وكان من أكثر أهل زمانه عبادةً، ويُشاع عنه أنه لم يكن يزوج بناته.

٨ ـ عبد الله بن عبد الله: وكان أشبه أفراد أسرته بأبيه، وزوّج بناته إلى أبناء إخوته.

٩ ـ بكر بن عبد الله: وأمه عائشة بنت أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وليس له عقب. ويكنى ابن الزبير به، وبهذه الكنية، كنّاه رسول الله ﷺ.

١٠ ـ هاشم بن عبد الله: ولا عقب له.

١١ ـ عروة بن عبد الله: ولا عقب له.

١٢ ـ عبيد الله بن عبد الله: ولا عقب له.

١٣ ـ الزبير بن عبد الله: ولا عقب له، وقتل مع أبيه.

١٤ ـ أبو بكر بن عبد الله: ولا عقب له.

البنات:

كان لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، بنت واحدة معروفة، وهي: أم الحسن، وأمها نفيسة بنت الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما.

الخَاتِمَة

يبدو جليّاً أن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، كان رجلاً تقيّاً من سلف صالحي هذه الأمة، وهو الخليفة الشرعيّ من مُبايعته في مكّة في السادس من رجب سنة أربعٍ وستين حتى السابع عشر من شهر جمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وسبعين، وأنه لم يقم بفتنةٍ بل خرج عليه أهل الفتنة، وألّبوا عليه، وقاتلوه حتى غلبوه وقتلوه، ولو أراد الخروج على الخليفة الذي قبله لأطاعه الناس، ولقاتلوا معه لما هو عليه من الصلاح، غير أنه لا يدّعي خلافةً، وهناك من يشغلها، ولا يقبل قيام خليفتين للمسلمين في وقتٍ واحدٍ إذ تفترق الأمة، وتذهب ريحها.

لكن سهام الأعداء تُوجّه على رجال هذه الأمة للنيل من العقيدة التي يحملونها وهي الإسلام، وقد وجد الأعداء ثغرةً في هذه المرحلة فصوّبوا سهامهم من خلالها إلى هذا الخليفة الصالح، واتخذوا حجّتهم من قيامه بالخلافة بين رجال أسرةٍ واحدةٍ، حمل العهد كله اسمها،

وعُرف به. وقبِل بعضهم هذه الحجّة فنسب الفتنة إلى هذا الصحابيّ، وردّدها، وسُرّ الأعداء بنسب الفتن إلى الصحابة حيث في هذا نصر لهم، وبدء ولوجهم إلى مسرح التاريخ الإسلاميّ يُدوّنون فيه حسب هواهم، ويلعبون في تسويد صفحاته.

كما قبل بعض المغرضين تلك الحجّة لإعطاء المرحلة كلها صفة الفتنة ما دام الذين يدعون لهم لتسلّم الأمر بعيدين عن ساحة السلطان، ويزعمون أنهم لو كانوا فيها لما وقعت فتن، ولما حدثت خلافات، ذلك زعمهم بألسنتهم وأقلامهم. ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بيّنةٍ بكذبه وافتراءاته، والفتن التي أشعلها والدماء التي أسالها، ويحيا من حيّى عن بيّنةٍ بصدقه، ومحاولته رأب الصدع وجمع كلمة الأمة، والحكم بما أنزل الله. فالجنّة لها أهلها، والنّار لها أهلها، والعمل في هذه الدنيا يُحدّد مكان صاحبه، وذلك هدى الله يهدي به من يشاء، وهو العزيز الحكيم.

فنرجو من الله أن يهدينا سواء السبيل فتكون أعمالنا صالحةً، ونياتنا صادقةً، وأفعالنا خالصةً لله لنكون من أهل جنة المأوى، لنا فيها النعيم الدائم، خالدين فيها بإذن الله. كما نرجو من الله أن يُبعدنا عن مفاتن الدنيا

ومغرياتها، وأن يُجنّبنا الأطماع فما عند الله خير وأبقى.

والسلام على من اتبع الهدى.

المُحْتَوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

صدر للمؤلف

سلسلة الخلفاء

- الصدّيق وأسرته.
- الفاروق وأسرته.
- ذو النورين وأسرته.
- رابع الراشدين وأسرته.
- الحسن بن علي.
- معاوية بن أبي سفيان وأسرته.
- يزيد بن معاوية.
- عبد الله بن الزبير.